السنة والشيعة

وحدة الدين

خلاف السياسة والتاريخ



أحمد الكاتب - د. محمد عمارة

مكتبة النافذة

السنة والشيعة

وحدة الدين

خلاف السياسة والتاريخ

تأليف

أحمد الكاتب - د. محمد عمارة

الناشر

مكتبة النافذة

السنة والشيعة

وحدة الدين
خلاف السياسة والتاريخ

تأليف

أحمد الكاتب - د. محمد عمارة

الطبعة الأولى / ٢٠٠٨

رقم الإيداع ٢٤٧٨ / ٢٠٠٨

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة

الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢ شارع الشهيد أحمد حمدى

الثلاثينى (ميدان الساعة) - فيصل

Tel: 37241803 Fax: 37827787
Mob: 012 3595973
Email: alnafezah@hotmail.com

دراسة وتقديم

الشيعة والسنة

جوهر الخلاف.. وسبُل التقريب

تأليف

د. محمد عمارة

بسم الله الرحمن الرحيم

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: ٢٩].

{وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٦٣].

{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ} [الصف: ٤]

{إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٩٢]

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦].

{وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۞٥٢ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۞٥٣ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ} [المؤمنون: ٥٢ - ٥٤].

{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [الأنعام: ١٥٩].

* * *

عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة، والعامة، والمسجد»

روه الإمام أحمد فى المسند.

تمهيد

فى بداية عقد السبعينيات من القرن الماضى - العشرين الميلادى - وأثناء جمعى للمادة العلمية لرسالة الدكتوارة فى موضوع [نظرية الإمامة وفلسفة الحكم عند المعتزلة] - وهى دراسة مقارنة بين المعتزلة والشيعة بالدرجة الأولى، افتقدت فى مكتبتى عددا من المصادر الأساسية فى الفكر الشيعى - من مثل [الأصول من الكافى] - للكلينى [٣٢٨ هـ ٩٤١م] - وغيره من المصادر الأساسية التى جمعت الرؤية الشيعية للإمامة ومعالم المذهب وعقائده عند الإمامية الإثنى عشرية.

ولقد نبهنى بعض الأصدقاء إلى مكتبة شيعية «خاصة» فى حى الدقى ، بالقاهرة الكبرى ييسر صاحبها للراغبين من الباحثين والقراء الاطلاع على المصادر والمؤلفات فى الفكر الشيعى.. فذهبت إليها، وتعرفت على صاحبها، ووجدت فيها أغلب ما أريد.

ولأنى - فى ذلك التاريخ - كنت قد نشرت عددا وافرا من المؤلفات والتحقيقات، فلقد وجدتنى معروفا لدى صاحب المكتبة، الذى احتفى بى، ويسر لى الحصول على ما أريد من المصادر والمراجع.. بل وتوطدت بيننا علاقة مودة تبادلنا فيها الزيارات لعدة سنوات.

كانت هذه المكتبة تشغل قاعة كبيرة فى منزل صاحبها «حجة الإسلام السيد طالب رفاعى» وهو شيعى عراقى، يعيش فى مصر - كما يقول - لإنجاز دراساته العليا - فى النحو - بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

* وأثناء جلوسى الطويل للاطلاع فى مكتبته لفت انتباهى - من أحاديثه مع بعض المترددين عليه - أن الرجل إنما يقوم بنشر فكر التشيع فى مصر، ويعمل على «تجنيد» الأنصار، و «زرع» الخلايا الشيعية بين المصريين السنة «ولقد أعاننى على فهم معالم هذه المهمة وتفسير العبارات التى كنت أسمعها» خبرة طويلة - سابقة - لى فى التنظيمات السياسية - والسرية منها على وجه الخصوص؟

وكانت السنين تمر دون أن ينجز السيد طالب رفاعى أى شىء فى دراساته العليا .. الأمر الذى أكد لدىّ أن هذه «الدراسات العليا» ليست أكثر من «الستار» الذى يمارس تحته «حجة الإسلام» نشر التشيع فى مصر، بتمويل من «الخمس» الذى تنفق منه المراجع الشيعية و «الحوزات العلمية» على مثل هذه النشاطات.

* وكنا فى جلساتنا الفكرية والعلمية نتطارح الأفكار حول المذاهب الإسلامية .. فالرجل شيعى، وأنا سنى، أبحث فى الاعتزال.. ولقد صارحنى فى إحدى هذه الجلسات بمنزلى - فقال:

إن التشيع - من الناحية الفكرية - ليست له قوة المقومات التى قام عليها الاعتزال - كالنظرية المتكاملة فى «الأصول الخمسة» - لكن الاعتزال - مع ذلك - قد طويت صفحته كفرقة، بينما استمرت الشيعة والتشيع لأنه قد حول عقائده - وخاصة فى الإمامة والأئمة - إلى منهاج تربوى يلازم الإنسان الشيعى من لحظة الولادة وحتى الوفاة والدفن والعزاء. مرورا بالأفراح والمناسبات والأدعية والزيارات التى تملأ الزمان والمكان والعقل والوجدان بالنسبة للإنسان الشيعى - فردا «وأسرة ومجتمعا».

* وإبان سنوات هذه العلاقة التى ربطت مودتها بينى وبين السيد طالب رفاعى كنت أتساءل بينى وبين نفسى - متعجبا:

- لماذا يبذل إخواننا الشيعة الجهود والأموال والسنين لنشر التشيع وزرع الخلايا الشيعية فى المجتمعات السنية؟! «ألسنا جميعا مسلمين؟!

إن المجتمع المصرى تتعايش فيه المذاهب السنية الأربعة - الشافعى - والمالكى - والحنفى - والحنبلى - ولم يشغل أحد نفسه - فى هذا المجتمع بتحويل إنسان من مذهب إلى مذهب آخر ولم ينفق أحد جهدا ولا مالا فى نشر المذاهب السنية فى المجتمعات الشيعية لسبب بسيط هو أننا جميعا مسلمون.

وتذكرت كيف أنى عندما تقدمت للالتحاق بمعهد دسوق الدينى - فى الأزهر الشريف سنة ١٩٤٥م «اقترح على من كتب لى طلب الالتحاق أن أدرس الفقه على المذهب الحنفى - لأكون قاضيا شرعيا - فوافقت.. ثم لما التحقت بالمعهد غيرت المذهب من الحنفى إلى المالكى - لانتشار المذهب المالكى فى قريتى وحولها - ولقد تم ذلك دون عناء «فكلنا مسلمون» وسماحة مصر تحتضن كل تراث الأمة.. حتى أنك لا تجد - فى مساجدها - من يسأل عن مذهب الإمام أو المأموم.

بل وتساءلت أيضاً:

- لماذا هذا الحرص الشيعى على نشر التشيع وزرع خلاياه وتنظيماته فى مصر على وجه الخصوص؟!.

ولقد أدركت - من الحوارات - أنهم يحنون إلى إعادة مصر إلى التشيع، لا لمركزها وثقلها وتأثيرها الإسلامى والقومى والحضارى فقط، وإنما لأنها قد سبق وحكمها الشيعة الإسماعيلية الفاطميون [٣٥٨هـ ٩٦٩م - ٥٦٧ هـ ١١٧١م].. وسبق للأزهر أن كان الجامعة الشيعية التى أقامها الفاطميون.. والتى قام على التدريس فيها دعاة الشيعة الإسماعيلية وفقاؤها.. فكان «الحوزة الشيعية الإسماعيلية» لنحو قرنين من الزمان.

إذن فنحن أمام حنين شيعى يحلم أصحابه بتغيير «الخريطة المذهبية» فى العالم الإسلامى وفى مصر على وجه الخصوص:

* ولقد امتدت الإقامة بالسيد طالب رفاعى فى مصر .. ودام نشاطه فى زرع التشيع إلى ما بعد قيام الثورة الشيعية الإسلامية بإيران [١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م].

وعندما استضاف الرئيس الراحل أنور السادات [١٣٣٦ - ١٤٠٢هـ ١٩١٨ - ١٩٨١م] الشاه الإيرانى الذى أسقطته الثورة - محمد رضا بهلوى [١٣٣٧ - ١٤٠٠هـ ١٩١٩ - ١٩٨٠م] فى مصر.. ومات بها استدعت الحكومة المصرية «حجة الإسلام الشيعى السيد طالب رفاعى» ليصلى على جثمان الشاه فى الجنازة الشهيرة التى أقامها له السادات ويومئذ غضب قادة الثورة الإسلامية بإيران على السيد طالب .. وهاجموه، لأنه كرم الشاه ! وارضى السادات.

* ثم ما لبثت قصة السيد طالب رفاعى أن انتهت بمفارقة ذات دلالات.

فالرجل قد اشترى - من أموال «الخمس» مسكنا فسيحا ونقل إليه المكتبة الكبيرة وتزوج مصرية - ثم اكتشف - فى النهاية - أن كل ذلك - بما فيه نشاطه الدعوى المذهبى والتنظيمى - وحتى زواجه - إنما كان يتم تحت أعين الأجهزة الأمنية! فغادر مصر، خاسرا زوجته ومكتبته .. ودون حصاد ذى قيمة للنشاط الذى بذل فيه الجهد والمال على امتداد السنوات الطوال!

* ولقد تولى المهمة بعد السيد طالب رفاعى - شاب عراقى نابه.. عاش بمصر لسنوات، ينجز دراساته العليا فى الفلسفة الإسلامية.. ولقد جمعت بينى وبينه علاقات مودة حتى كان يعد نفسه - ونعده واحدا من أبنائنا .. ولا زالت تربطنا وبأسرته علاقات المودة والمحبة والتقدير - بعد مغادرته مصر - حتى هذه اللحظات.

ورغم أنى كنت أدرك رعايته لنشر التشيع فى مصر، إلا أنى لم أفاتحه فى الأمر.. وذلك إيمانا منى بأن حصاده هو الآخر - لن يتفوق على حصاد السيد طالب رفاعى كثيرا.. ذلك أن مصر التى مثلت - عبر تاريخ الإسلام - القلب والعقل والضمير للعالم السنى والفكر السنى والوسطية الإسلامية ،لم تعرف الغلو الذى يجعلها تتعصب لآل البيت.. أو تتعصب ضدهم.

لقد رفضت مصر الغلو الشيعى فى آل البيت.. ذلك الغلو الذى ألّههم عندما قال «بالإمامة الإلهية وتأليه الأئمة» رفضت مصر ذلك الغلو حتى عندما حكمها الشيعة الإسماعيلية الفاطميون فكانت السلطة شيعية تكفّر الصحابة وأصل السنة والجماعة وتكتب لعن أبى بكر [٥١ق هـ - ١٣ هـ - ٥٣٣ - ٦٣٤م] وعمر بن الخطاب [٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ ٥٨٤ - ٦٤٤ م] على جدران المساجد بماء الذهب! وكان الشعب المصرى سنيا، يحب آل البيت وجميع الصحابة - عليهم رضوان الله- بل وكان هذا الشعب - فى معارضاته للفاطميين ومظاهراته ضد الدولة والسلطة - «يغيظ» الشيعة فيهتف: «معاوية خال المؤمنين»! «مذكرا إياهم بأن معاوية بن أبى سفيان [٢٠ ق هـ - ٦٠ هـ ٦٠٣ - ٦٨٠م] - الذى يكرهونه ويكفرونه - هو خال المؤمنين ، لأن أخته «أم حبيبة» هى واحدة من زوجات رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين أى أن أخت معاوية - بنت أبى سفيان - هى من آل البيت !! {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: ٣٢، ٣٣].

وعندما كان الفاطميون يقيمون الأحزان - فى عاشوراء - العاشر من محرم - ذكرى استشهاد الحسين - كان المصريون - الذين يحبون الحسين - يصنعون

«حلوى عاشورا»، نكاية فى الفاطميين الشيعة الغلاة! ولقد ظلوا يصنعون ذلك حتى الآن!.

وعندما انقضى عمر الدولة الفاطمية وعادت الدولة السنية إلى مصر بقيادة صلاح الدين الأيوبى [٥٣٢ - ٥٨٩ هـ ١١٣٧ - ١١٩٣م] مؤسس الدولة الأيوبية - لم تجد بقايا السلطة الفاطمية بين الشعب المصرى نصيرا.. حتى لقد سعت هذه البقايا للتحالف مع الصليبين بين - الكفار الأعداء- ضد الدولة السنية التى قادها صلاح الدين!

* ومع هذا الرفض المصرى للغلو الشيعى - فى «الإمامة الإلهية» و «تأليه الأئمة» - كان الحب المصرى لآل بيت رسول الله ﷺ:

لقد أقامت مصر للإمام الحسين [٤ - ٦١ هـ ٦٢٥ - ٦٨٠م] مسجدا ومقاما ومزارا ومولدا وميدانا وحيا يسمى باسمه .. رغم أن قدمه لم تطأ أرض مصر.. ولا برهان من التاريخ على أن رأسه قد دفن فيها .

وأقامت مصر للإمام زين العابدين [٣٨ - ٩٤ هـ ٦٦٨ - ٧١٢م] مقاما ومزار ومسجدا ومولدا وحيا وميدانا .. رغم أنه - هو الآخر - لم تطأ قدمه أرض مصر.

وصنعت مصر ذلك الحب والولاء والمودة والاحتضان مع العديد من رموز آل لبيت رسول الله ﷺ رجالا ونساء.

وفوق ذلك وقبله كان الشعب المصرى - لا يزال يخص الراشد الرابع على بن أبى طالب [٢٣ ق هـ - ٤٠ هـ ٦٠٠ - ٦٦١م] بلقب «الإمام» وبدعاء: «كرم الله وجهه» فى الوقت الذى يحتضن فيه المصريون ويحبون كل أصحاب رسول الله ﷺ - ورضى الله عنهم أجمعين.

بل لقد عبرت الأسماء الأكثر شيوعا فى مصر - وللأسماء فى المجتمعات دلالات دينية وسياسية واجتماعية - عن هذه الوسطية وهذا الاعتدال فى الحب

لآل البيت - أى لبيت النبوة - فأكثر الأسماء شيوعا بمصر هى أسماء آل البيت - سواء منهم الذين يقدسهم الشيعة أو الذين يكفرونهم ويلعنونهم! فأسماء محمد وعلى ..وحسن .. وحسين .. وإبراهيم .. وخديجة.. وعائشة .. وفاطمة.. وزينب.. ورقية هى أكثر الأسماء شيوعا بمصر.. ومعها أسماء : أبو بكر.. وعمر.. وعثمان.. بينما لن تجد بمصر من اسمه معاوية ولا يزيد! ولقد ولدتُ بأسرة ريفية ونشأت، فإذا بأسمائنا جميعا هى من أسماء آل البيت .. بعفوية ليس وراءها تدبير.

وهكذا لن تجد مجتمعا شيعيا تشيع به أسماء آل بيت كما هو الحال فى مصر، التى لم تتعصب لهم فى يوم من الأيام!.

* والأزهر الشريف - الذى بناه الفاطميون .. والذى ظل لقرنين «حوزة» باطنية اسماعيلية عندما حوله صلاح الدين الأيوبى إلى جامعة لمذهب الأمة - لا مذهب الدولة الباطنية - سرعان ما سلك - فى مناهجة ومقرراته - المنهاج الوسطى .. يدرس مذاهب الإسلام قاطبة - السنية منها والشيعية وتحتضن آراء الخلف والسلف.. دونما غلو أو تعصب أو انغلاق على مذهب دون المذاهب الأخرى.

* * *

كان هذا هو تاريخ مصر وشعبها مع المذاهب وتيارات الفكر الإسلامى - وهو التاريخ الذى جعلنى دائم التساؤل:

- لماذا هذا الحرص الشيعى على زرع الخلايا الشيعية فى أوساط الشعب المصرى؟! ألسنا جميعا مسلمين؟!

* ثم إن الاستعمار الغربى ، الطامع تاريخيا فى إعادة اختطاف الشرق من التحرير الإسلامى ، الذى أنقذ هذا الشرق من القهر الدينى والثقافى والسياسى والحضارى ، الذى دام - قبل الإسلام - عشرة قرون - من «الإسكندر الأكبر»

[٣٥٦ - ٣٢٣ق م] - فى القرن الرابع قبل الميلاد - إلى «هرقل» [٦١٠ - ٦٤١م] - فى القرن السابع للميلاد .. إن هذا الاستعمار الغربى كان على مر تاريخه مع الشرق الإسلامى دائب الحرص على زرع الفرقة الدينية والمذهبية والعرقية بين مكونات هذا الشرق، وذلك للنفاذ من هذه الثغرات لاحتواء الشرق وإعادة اختطافه من جديد.

صنع ذلك إبان الغزوة الصليبية [٤٨٩ - ٦٩٠هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١م] مع بعض الطوائف المسيحية وخاصة ذات المذاهب التابعة للكنيسة الغربية - وصنع ذلك أيضا مع بقايا السلطة الفاطمية بمصر.

ولقد جعل هذا الاستعمار الغربى من هذه التفرقة ومن الاختراق من خلال ثغراتها سياسة معلنة منذ غزوته الحديثة، التى قادها بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] على مصر [١٢١٣ هـ ١٧٩٨م]. فلقد أعلن بونابرت - وهو فى الطريق من «مرسيليا» إلى الإسكندرية - إنه سيجند ٢٠٠٠٠ من أبناء الأقليات المسيحية فى مصر ليكونوا ركيزة لمشروعه الاستعمارى الغربى.. ونفذ هذا الإعلان، بتكوين «الفيلق القبطى» الذى قاده المعلم يعقوب حنا [١٧٤٥ - ١٨٠٠م] الذى سماه الجبرتى [١١٦٧ - ١٢٣٧هـ ١٧٥٤ - ١٧٢٢م] «يعقوب اللعين» .. ذلك الذى عهد إليه الجنرال الفرنسى «كليبر» [١٧٥٣ - ١٨٠٠م] - الذى قاد الغزوة بعد بونابرت «أن يفعل بالمسلمين ما يشاء.. فأعلن انقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين»[١].

ومن على أسوار «عكا» وأثناء حصار بونابرت لها [١٢١٣ هـ ١٨٩٩م] أصدر نداءه إلى يهود العالم، كى يكونوا ركيزة ثانية من ركائز مشروعه لاستعمار الشرق، ملوحا لهم بإقامة الكيان الصهيونى على أرض فلسطين.

١ - الجبرتى [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] جـ ٥ ص ١٣٦ تحقيق : حسن محمد جوهر، عمر الدسوقى، سيد إبراهيم سالم. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

ولقد مارس الاستعمار الفرنسي في المشرق هذا الدور مع الموارنة الكاثوليك.. وفي المغرب مع الأمازيغ المسلمين!

ولوضوح هذه المخططات الغربية في نشر الفوضى الدينية والمذهبية والعرقية في صفوف الأمة العربية الإسلامية لتحقيق «الهشاشة» التي تسهل للاستعمار اختراق الوحدة الإسلامية كان التساؤل الدائم:

- لماذا يصنع إخواننا الشيعة - بنشر التشيع في المجتمعات السنية - هذا التخلخل الاجتماعي، والتمزق المذهبي، والتناصر الطائفي، فيحققون هذه المقاصد الاستعمارية وهم المسلمون الذين سيضارون - مع سائر أبناء الأمة - من هذه الطائفية التي تخلخل وحدة المجتمعات؟! وإذا كنا جميعا مسلمين، فما المكسب الإسلامي من وراء تحويل المجتمعات ذات النسيج الاجتماعي والمذهبي الموحد والقوي - كمصر مثلا إلى مجتمعات طائفية هشة وقلقة وسهلة الاختراق - مثل العراق ولبنان على سبيل المثال؟!

* ومع أن حصيلة التبشير الشيعي في المجتمعات السنية كانت ولا تزال هزيلة - فهي في أحسن الحالات تخلق مجموعات متناقضة مع محيطها الاجتماعي والمذهبي تستنفد أغلب طاقاتها في صراعات عبثية مع محيطها - فلقد استمر إخواننا الشيعة في بذل هذه الجهود والأموال والأعمار في هذا الميدان حتى هذه اللحظات.

إن مصر قد احتضنت كل المذاهب الفقهية الإسلامية في إصلاحاتها التشريعية منذ العقود الأولى للقرن العشرين.

واحتضنت حركة التقريب بين الشيعة والسنة منذ أربعينيات القرن العشرين.

وأصدرت موسوعة الفقه على المذاهب الإسلامية الثمانية المعتمدة الأصول - الشافعي - والحنفي والمالكي والحنبلي والجعفري والزيدي والإباضي والظاهري

مع بقائها فى الفلسفة وعلم الكلام - سنية أشعرية ما تريدية- أى أنها قد التزمت الوسطية الجامعة فى الفقة وفى علم الكلام جميعا.. ورفضت غلو التعصب لمذهب فقهى واحد أو التعصب الكلامى ضد المذاهب غير السنية.

وهى التى أحيت منذ خمسينات القرن العشرين تراث الاعتزال ، فحققته ونشرته، بعد أن صورت مخطوطاته من مكتبات اليمن سنة ١٩٥١م.

* * *

ولأننى ابن هذه الوسطية الإسلامية الجامعة، فلقد احتضنت فى مشروعى الفكرى - كل مذاهب الإسلام وجميع أعلام الإسلام - باحثا عن الأرض المشتركة التى توحد الأمة - وهى واسعة والحمد لله - وداعيا إلى رفض الغلو الذى يمزق الصفوف ويخلخل وحدة المجتمعات.

ففى أواخر ستينيات القرن الماضى، جمعت وحققت ونشرت [رسائل العدل والتوحيد] وفيها حرصت على أن تضم إبداعات أعلام أهل السنة والجماعة، والشيعة الزيدية، والشيعة الإثنى عشرية، والمعتزلة وقدمت لها بدراسة مستفيضة تكشف عن اتساع مساحة الوفاق والاتفاق والأرض المشتركة بين هذه المذاهب والتيارات وذلك فى دعوة صريحة لاجتماع الأمة على ما يوحدها.. والابتعاد عن ما يفتح بين صفوفها الثغرات التى ينفذ منها الأعداء المتربصون.

وفى أوائل السبعينات - من القرن الماضى - نشرت دراسات عن أعلام الفكر والتاريخ الإسلامى - فى كتابى [مسلمون ثوار] - وفيه حرصت على أن تتجاور الدراسات التى كتبتها عن الأعلام والأئمة الذين يمثلون مذاهب الأمة وتياراتها الفكرية المتعددة.

وحتى عندما كتبت عن الدولة الفاطمية - إبان احتفال مصر بألفية القاهرة [١٣٨٩ هـ ١٩٦٩م] - الدراسة التى نشرتها بكتابى [عندما أصبحت مصر

عربية إسلامية] حرصت على إنصاف الإنجازات الحضارية التى أبدعتها الدولة الفاطمية بمصر.. وانتقدت التعصب المذهبى الذى غض من شأن هذه الصفحة من صفحات التاريخ المصرى.. وذلك رغم أن العقيدة الباطنية الغنوصية لهذه الدولة قد مثلت - برأى جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] السبب والبداية فى الانحطاط الذى أصاب الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامى.. فلقد قال الأفغانى فى ذلك:

«إنه لما كان القرن الرابع الهجرى، ظهر النيشريون - [الطبيعيون الدهريون] - بمصر تحت اسم الباطنية وخزنة الأسرار الإلهية، وانبث دعاتهم فى سائر البلاد الإسلامية، خصوصا بلاد إيران وكان إذا سقط الساقط من المغرورين فى حبالة مرشدهم الكامل فأول ما يلقيه المرشد قوله: إن الأعمال الشرعية الظاهرة (كالصلاة والصيام ونحوها) إنما فرضت على المحجوبين دون الوصول إلى الحق، والحق هو المرشد الكامل، فحيث إنك وصلت إلى الحق فإليك أن تلقى عن عاتقك ثقل الأعمال البدنية! فإذا قرر المرشد أصول الإباحة فى نفوس أتباعه التمس لهم سبيلا لإنكار الألوهية وتقرير مذهب البشرية (الدهرية) ..»[1].

ولقد اعتبر الأفغانى هذه العقائد الباطنية المادية للفاطميين بداية الانحطاط - وسببه - فى التاريخ الإسلامى ، فقال:

«لقد ذهب المؤرخون إلى أن بداية الانحطاط فى سلطة المسلمين كان من يوم ظهور حرب الصليب والأليق أن يقال إن ابتداء ضعف المسلمين كان من يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد البشرية (الدهرية) فى صورة الدين وسريان هذه السموم القاتلة فى نفوس أهل الدين الإسلامى..»[2].

---

١ - الأفغانى [الأعمال الكاملة] ص ١٥٨، ١٥٩ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

٢ - المصدر السابق ص ١٦١.

فهو يجعل الهزيمة أمام الصليبين نتيجة لشيوع العقائد الباطنية التي أشاعها الإسماعيليون الباطنية في عالم الإسلام!.

* وبسبب من هذا التوجه الفكري الوسطى والجامع، الذي دعوت فيه إلى التمييز بين الدائرة الإسلامية بكل مكوناتها المذهبية، لنكون رفقاء على مذاهبها ومكوناتها، وبين دائرة العداء للإسلام لنكون أشداء في مواجهة هؤلاء الأعداء، وذلك عملا بالمنهاج القرآني [﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

بسبب هذا التوجه الفكري قامت علاقات المودة الفكرية والتعاون العلمي بيني وبين العديد من علماء الأمة، على اختلاف مذاهبهم ومنهم الشيعة الزيدية ، والإثني عشرية على وجه الخصوص.. وكنت دائم الحرص على الإفضاء بآرائي هذه في الحوارت مع هؤلاء العلماء.

لقد جمعت بيني وبين الإمام الشيعي العظيم الراحل محمد مهدي شمس الدين [١٣٥٥ - ١٤٢٢ هـ ١٩٣٦ - ٢٠٠١م] مودة فكرية عميقة، سجلها في مراسلات كتبها إلي، ومنها رسالته النفيسة والمطولة عن كتابي عن الدكتور/ عبد الرزاق السنهوري باشا (١٣١٣ - ١٣٩١هـ ١٨٩٥ - ١٩٧١م] - [الدكتور عبد الرزاق السنهوري: إسلامية الدولة والمدنية والعمران].

وقامت هذه المودة - ولا تزال - مع الإمام العظيم آية الله محمد حسين فضل الله.. ومع العالم الفاضل آية الله سيد هادي خسرو شاهي - الذي جمعني وإياه الاهتمام بتراث جمال الدين الأفغاني منذ ستينيات القرن العشرين . - وكذلك كانت المودة - الفكرية والإنسانية - مع الدكتور السيد محمد خاتمي.

* وفي زيارتي الثانية لإيران سنة ٢٠٠١م، ضمن وفد مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف - للمساهمة في الاحتفال بإمامي التقريب بين الشيعة والسنة - الإمام البروجردي والإمام الشيخ محمود شلتوت [١٣١٠ -

١٣٨٣ هـ ١٨٩٣ -١٩٦٣م) - كانت لى محاورات مع العديد من علماء الشيعة حول مخاطر خلخلة وحدة النسيج المذهبى والثقافى فى المجتمعات السنية، بزرع الخلايا الشيعية وكيف أن العقل والحكمة يقضيان بالامتناع عن خلخلة وحدة المجتمعات الإسلامية - السنية والشيعية منها على السواء.. فلولا الوحدة الشيعية للشارع الإيرانى لما نجحت الثورة الخمينية فى إيران [١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م] ولولا الوحدة المذهبية للمجتمعات السنية لما تصدت هذه المجتمعات لأعداء الأمة الصليبيين والتتار والاستعمار الغربى على مر تاريخ الإسلام.

كذلك دارت حوارات حول الاقصاء الشيعى لأهل السنة فى إيران فالزراد شت المجوس ، واليهود ، والنصارى لهم ممثلون فى مجلس الشورى الإيرانى... بينما أهل السنة الإيرانيون - بملا بينهم العديدة محرومون وحدهم من هذا الحق!

ولقد قلت لبعض علماء الشيعة فى طهران - فى هذه المحاورات : أليس غريبا - بل وشاذا أن يكون للمسلمين السنة مسجد ومركز إسلامى فى روما - حيث الفاتيكان - بينما هم محرومون من أن يكون لهم مجسد يقيمون فيه صلاة الجمعة فى طهران؟!

وفى المؤتمر ، صارحت علماء الشيعة بأن سمة التقريب - التى انطلقت من القاهرة فى أربعينيات القرن العشرين على أهميتها وعظمة العلماء الذين نهضوا بها - إنما كان حصادها دون المطلوب فهى قد ركزت على التقريب بين المذاهب الفقهية، التى لا تمثل أى إشكال فى علاقة الشيعة بالسنة .. وحتى فى هذا الميدان كان الشيعة «يأخذون» دون أن «لا يعطوا» بينما أغلقت دعوة التقريب هذه الخلاف الجوهرى، وهو «نظرية الإمامة» وما أفرزه الخلاف حولها من تكفير الشيعة للصحابة وأهل السنة والجماعة - وتكفير الوهابية - أو بعضهم - للشيعة .. وللصوفية. بل وللأشعرية أحيانا!

* والأمر الغريب - والمؤسف - أن هذه المحاولات والمكاشفات الموضوعية والمخلصة قد أثمرت - أحيانا - ثمرات سلبية!

فمجلة «التوحيد» التى تصدر فى طهران - والتى كانت تصلنى بالبريد - قد انقطع وصولها بعد هذه المحاورات!

ومجلة «تراثنا» - التى تصدر فى «قم» والتى كانت تصلنى بالبريد - قد انقطع وصولها بعد أن أعلنت استغرابى واستنكارى من سلسلة المقالات الافتتاحية التى نشرتها عن أعداء السنة النبوية، والتى جعلت من أبى بكر الصديق العدو الأول للسنة النبوية.. ومن عمر بن الخطاب عدوها الثانى!.

* ورغم ذلك.. استمرت علاقات المودة الفكرية والعلمية مع العديد من علماء الشيعة ومفكريهم ومناضليهم واستمر الحوار الموضوعى حول السبل الحقيقية للتقريب الحقيقى بين الشيعة والسنة حتى هذه اللحظات.

* * *

لكن الحلم الشيعى بتحويل السنة إلى التشيع - وكأنه الهداية من الكفر إلى الإيمان قد ظل قائما ودائبا رغم تفاهة الحصاد حتى هذه اللحظات!.

لقد نجحوا - بمصر - فى استقطاب «خطيب زاوية» احترف سب الصحابة وأمهات المؤمنين على منبر «الزاوية» سبا مقذعا! ثم انتهى به المطاف إلى «قم» يزيف فيها على إخواننا الشيعة القصص الخرافى عن تحول علماء السنة إلى المذهب الاثنى عشرى! وهم ينشرون له هذه «الحكايات» فى مجلدات!

ونجحوا - أخيرا- فى استقطاب طبيب - سموه «المتحدث الرسمى باسم الشيعة فى مصر» احترف الكتابة فى سب الصحابة والهجوم على الذين حرروا مصر - بالفتوحات الإسلامية - من الروم البيزنطيين، وأنقذوا النصرانية المصرية من الإبادة وفتحوا أبواب مصر أمام دين الإسلام.. وفى محاضرة له، لمح فيها إلى هذا السباب - أفلت يومئذ بأعجوبه من تأديب الجمهور!.

ولقد كتب هذا «المتحدث الرسمى باسم الشيعة فى مصر» عن البطل التاريخى للإسلام صلاح الدين الأيوبى فوصفه بأنه «هو لاكو الدين الأيوبى» بينما دافع بحرارة عن الدولة الفاطمية الإسماعيلية - التى يكفرها الاثنى عشرية - الذين ينطق باسمهم على ضفاف النيل[1] !! الأمر الذى يسىء إلى الشيعة والتشيع أبلغ الإساءات!.

* * *

لذلك كله، كانت سعادتى الغامرة عندما قرأت الكتاب الفذ والعمدة للعالم الفاضل الدكتور أحمد الكاتب عن [تطور الفكر السياسى الشيعى من الشورى إلى ولاية الفقيه] - فى طبعته اللندنية الأولى سنة ١٩٩٧م.

وكانت سعادتى عندما زارنى وطلب منى أن أقدم لطبعة مصرية لهذا الكتاب.. فرحبت وقدمت لطبعته التى صدرت بالقاهرة سنة ٢٠٠٧م.

وكانت سعادتى - أيضا - عندما طلب منى أن أكتب وجهة نظر سنية لكتابه الجديد [السنة والشيعة: وحدة الدين اختلاف السياسة والتاريخ].

لقد وجدت فى كتابات هذا العالم الجليل الدكتور أحمد الكاتب الموقف الشيعىّ المخلص لوحدة الأمة الإسلامية : تلك الوحدة التى تسع التعددية المذهبية، التى هى تنوع فى إطار وحدة جوامع الإسلام الخمسة:

١ - وحدة العقيدة.

٢ - ووحدة الشريعة.

٣ - ووحدة الحضارة.

٤ - ووحدة الأمة.

٥ - ووحدة دار الإسلام.

---

١ - انظر صحيفة [القاهرة] عدد ٣٦٨ فى ١ - ٥ - ٢٠٠٧م.

وجدت فيه وفى كتاباته شجاعة العالم - الذى ينتمى إلى مذهبه الشيعى، ويحتل بين علمائه مكانة مرموقة. ومع ذلك يبحث عن الأرض المشتركة الجامعة بين السنة والشيعة لإعادة الوحدة لأمة الإسلام.

* وعندما يقارن المرء بين هذا المشروع الفكرى الذى يتبناه الدكتور أحمد الكاتب وبين مشروع المراجع والأحزاب التى تحالفت مع اليمين الدينى للمسيحية الصهيونية والمحافظين الجدد فى الامبريالية الأمريكية والغربية والصهيونية لغزو العراق وتأجج نيران الصراع المذهبى والطائفى بين الشيعة والسنة، ندرك الفارق الجوهرى والبون الشاسع بين «طوق النجاة» الذى يقدمه الدكتور أحمد الكاتب، وبين «العار .. والدمار» الذى تصنعه الطائفية - سواء السلفية منها أو الشيعية - على أرض العراق.

إن علينا أن نتحلى بالأمانة العلمية والشجاعة الفكرية التى تجعلنا نعلن:

إن المأساة العراقية قد مثلت أكبر الزلازل التى أصابت العلاقات الشيعية السنية منذ قرون فهناك أحزاب شيعية تكونت وتدربت وتسلحت فى ظل ولاية الفقيه الشيعية الإيرانية .. ثم تواطأت وتحالفت مع الصليبية الأمريكية، المدفوعة بالصهيونية اليهودية فى القضاء على قوة العراق ووحدته.. ثم عادت هذه الأحزاب مع الغزو الأمريكى للعراق سنة ٢٠٠٣م ودخلت عمائم كبيرة - ومعها الميليشيات التابعة لها - إلى بغداد على ظهور دبابات الأمريكان وطائراتهم!

وهناك مراجع شيعية كبرى يقلدها الملايين من عامة الشيعة، صمتت الرضا عن الغزو الأمريكى.. وأفتت بعدم المقاومة فأفسح أنصارها الطريق وفتحوا أبواب الجنوب العراقى أمام جحافل الغزو الزاحفة من الكويت - بينما أغلق البرلمان التركى فى تركيا العلمانية ، أبواب شمال العراق أمام الغزاة الأمريكان.

ومنذ اليوم الأول لاحتلال العراق - فى إبرايل سنة ٢٠٠٣م ولقيام المقاومة السنية للغزو والاحتلال ، قام التنسيق الكامل والتعاون الدائم بين هذه المراجع الشيعية الكبرى ومعها الأحزاب الشيعية وبين سلطات الاحتلال .. لا ضد المقاومة السنية وحدها ، وإنما أيضاً ضد المقاومة الشيعية التى أبداها - فى النجف - تيار التشيع العربى - التيار الصدرى - ضد جيوش الاحتلال حتى لقد ظهر التمايز فى داخل الصف الشيعى بين ما يسمى «بالتشيع الصفوى» وبين «التشيع العربى» .

ولقد شهدت مذكرات «بول بريمر» أول حاكم أمريكى للعراق المحتل على هذه العلاقات بين هذه المراجع الشيعية وبين الغزاة الأمريكان والتى كما قلنا مثلت أكبر زلزال أصاب العلاقات الشيعية السنية فى الصميم.

* لقد مثل «بول بريمر» الذى حكم العراق المحتل ما بين ١٢ مايو سنة ٢٠٠٣ و ٢٨ يونيو ٢٠٠٤م «المندوب السامى الأمريكى فى العراق المحتل» أو «ما كارثر بغداد» كما سماه البعض.

ولقد أنجز - خلال هذه الشهور الأربعة عشر - تدمير كل مقومات العراق المادية والبشرية .

* وفى مذكرته التى نشرها بعنوان [عام قضيته فى العراق] والبالغة صفحاتها بالترجمة العربية التى قام بها عمر الأيوبى - ونشرتها دار الكتاب العربى ببيروت سنة ٢٠٠٦م - ٤٩٦ صفحة... فى هذه المذكرات تقف أمام العديد من الوقائع ذات الدلالات الخطيرة فى موقف آية الله العظمى السيد على السيستانى من الاحتلال الأمريكى للعراق.

١ - فالسيستانى - وهو أكبر المراجع الشيعية المعاصرين - لم يصدر فتوى بمقاومة الاحتلال للعراق المسلم - كما صنع أسلافه مراجع الشيعة مع الإنجليز

سنة ١٩٢٠م وإنما - على العكس من ذلك - رفض إصدار مثل هذه الفتوى حتى عندما طلبها منه الرئيس السورى بشار الأسد.

ولقد كتب بريمر - فى مذكراته ص ٢٥٤:

«لقد أذهلنى موفق الربيعى بمعلومة أخرى، فقد أخبره السيستانى بأن الرئيس السورى بشار الأسد بعث برسالة سرية تقترح أن يصدر آية الله فتوى تدعو إلى الجهاد ضد الائتلاف» [أى الاحتلال].

فالرجل لم يمتنع - فقط - عن الإفتاء بمقاومة الاحتلال وإنما «بلغ» بريمر بفحوى الرسالة السرية للرئيس السورى بشار الأسد!!

٢ - ولقد كتب بريمر - ص ٧٥:

«إن القادة الشيعة بمن فيهم آية الله العظمى السيستانى، قد شجعوا أتباعهم على التعاون مع الائتلاف منذ التحرير»!!

٣ - وعندما شذ موقف التيار الصدرى - المعبر عن التشيع العربى - عن هذا الموقف - موقف التشيع الصفوى المتحالف مع الغزو والاحتلال.. تعاونت المرجعية الشيعية ومجلس الحكم - الذى أقامه بريمر بالاتفاق مع المرجعية ضد التيار الصدرى.. وكتب بريمر - فى مذاكرته ص ٤٠ يقول:

«تلقيت تحذيرا من مجلس الحكم بأن مقتدى الصدر يستعد لإصدار فتوى أثناء صلاة الجمعة يدعو فيها إلى الجهاد ضد قوات التحالف.. وأن أنصاره يحاولون إثارة الفوضى فى كركوك».

ثم يعود بريمر للتحدث عن موقف السيستانى من التيار الصدرى إبان انتفاضة الصدر بكربلاء، واعتزامه إنشاء حكومة فى ١٠ اكتوبر سنة ٢٠٠٣م - فيقول ص ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٠، ٢٤٥:

«إن آيـة الله يخشى التهديد الذى يشكله مقتدى، وإن الخيار المفضل للسيستانى هو أن لا يبقى مقتدى وافترضت بذلك أن يريد أن يقتل الشاب..

وعلمنا أن السيستانى أرسل ٢٠٠ مسلح إلى كربلاء لمواجهة قوات مقتدى وأفيد عن أن بعض مقاتلي السيستانى أعضاء فى ميليشيات المجلس الأعلى للثورة الإسلامية فى العراق - فيلق بدر. وعبر الوسطاء سألت آية الله السيستانى عن رأيه فى إجراء محادثات مباشرة مع مقتدى؟ فجاء رده سريعا وواضحا: نحن لا نعرف سبب التفاوض مع مقتدى أو فائدة ذلك».

ولقد انتهى الأمر بترك مقتدى الصدر - وتياره لقوات الاحتلال وميليشيات بدر، فتم «تأديب» مقتدى وأنصاره بينما السيستانى يقوم برحلة علاج فى لندن!

٤ - وفى البرهنة على موقف السيستانى من الاحتلال وتعاونه مع بريمر لتحقيق **«الأهداف المشتركة»** نطالع فى مذكرات بريمر:

أ - فى ص ٢٧٩ مكالمة هاتفية من وزير الخارجية الأمريكى «كولن باول» مع بريمر يقول فيها: **«عليك أن تحصل على مباركة السيستانى أرسل أحدهم إلى النجف أو توجه إليه بنفسك إذا دعت الضرورة لا يمكن أن أطلب من حكومتي المصادقة على مسار بدون بعض الضمانات بأن النجف (السيستانى) موافق عليه»!**

ب - وحتى يتم التعاون بين السيستانى وسلطات الاحتلال دون إخلال بهيبة المرجعية أمام الجمهور - وخاصة التيار الصدرى - تم الاتفاق، الذى كتب عنه بريمر ص ٥٢ - فقال: «ولقد أبلغنا السيستانى بعد التحرير مباشرة، ومن خلال قنواته الخاصة، أنه لن يقابل أحدا من التحالف - ولذلك لم أطالب بعقد اجتماع شخصى معه.

وقال لى «هيوم» الذى يفهم العالم العربى جيدا - «إن السيستانى لا يمكن أن يقبل بأن يظهر علانية بأنه متعاون مع قوة احتلال، كما أنه يريد أن يحمى

جماعته من آخرين من أمثال مقتدى الصدر. **ولكنه سيعمل معنا، فنحن نشترك معه فى الأهداف ذاتها».**

جـ - ولقد استعمل بريمر ثلاث قنوات للاتصالات المنتظمة مع آية الله السيستانى:

الأولى: عبر موفق الربيعى - مستشار الأمن القومى فى مجلس الحكم.

الثانية: عبر آية الله حسين إسماعيل الصدر - المقرب من السيستانى.

والثالثة: عبر عماد ضياء الخرسان - وهو أمريكى الجنسية، عراقى الأصل، شيعى المذهب كان المسئول عن لجنة إعادة الإعمار الأمريكى للعراق وهو الذى قال لبريمر - قب إحدى زياراته للسيستانى:

«إن آية الله العظمى معجب بك، ويحترمك، وهو يقدر الفرصة للعمل معك من أجل مستقبل العراق».

د - ولقد تحدث بريمر - فى مذكراته ص ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٨ - عن مراسلاته مع السيستانى فقال:

«وبينما كانت وسائل الاعلام العربية والأجنبية تتحدث عن الصلات المقطوعة بيننا وبين السيستانى، فإننى كنت على اتصال مستمر معه حول القضايا الحيوية، من خلال الوسطاء.

وكان هيوم - [هوران السفير والخبير فى الثقافة واللغة العربية] محقا فى تحليله، فقد أرسل لى السيستانى ذات يوم يقول: **إن عدم لقائه بنا ليس ناتجا عن عداء للتحالف، وإنما لأنه يعتقد أنه بذلك الموقف يمكن أن يكون اكثر فائدة لتحقيق أهدافنا المشتركة وبأنه سيفقد بعض مصداقيته لدى انصاره لو تعاون بشكل علنى مع مسئولى التحالف، كما فعل بعض العلمانيين من الشيعة والسنة أو رجال دين شيعة ذوى مرتبة منخفضة.**

لقد تبادلت مع السيستانى الرسائل بشكل منتظم حول الوضع الأمنى فى النجف، ولا سيما فى أغسطس سنة ٢٠٠٣م حين أصبح مقتدى «الصدر» يمثل تهديدا لنا.

وخلال الفترة من يوليو إلى منتصف سبتمبر فقط، تبادلت أكثر من عشرة رسائل مع السيستانى **الذى عبر، غير مرة، عن امتنانه لقوات التحالف لما فعلته للشيعة والعراق..**

ولقد بعثت رسالة تحذير إلى السيستانى، كما أرسلت بعض مساعدى للقاء كبير المسئولين الأمنيين فى النجف لتقديم المساعدة لحمايته خلال احتفالات عاشوراء، حيث تزدحم المدينة بحوالى مليونى زائر «عندما قدم مسئول محطة الاستخبارات في وقت متأخر من يوم ٢٨ فبراير سنة ٢٠٠٣م وما وصفه بأدلة ذات مصداقية تقول إن الزرقاوى يخطط لاغتيال السيد السيستانى].

وفى يوم ٨ يونيو سنة ٢٠٠٤م اعتمد قرار مجلس الأمن ١٤٥٦ بالإجماع، وتضمن ترحيبا بالحكومة الانتقالية فى العراق، باعتبارها تمثل مرحلة جديدة لانتقال العراق إلى حكومة منتخبة بشكل ديمقراطى، بالإضافة إلى تأييد صريح للجدول الزمنى المنصوص عليه فى قانون الإدارة المؤقت ولتنظيم الانتخابات فى ٣١ يناير سنة ٢٠٠٥م وأرفق القرار برسائل من «إياد» علاوى والوزير «كولن» باول تحدد دور قوات التحالف متعددة الجنسيات [وهو القرار الذى قنن الاحتلال الأمريكى للعراق].

وبعد ظهر ذات اليوم أتى ضياء [عماد ضياء الخرسا] **برسالة أكثر تعبيرا عن الرضا من آية الله السيستانى وبدا أنه كان «مسرورا» بما آلت إليه الأمور فى العتبات المقدسة، وبالحكومة الجديدة**، ورئيس الوزراء ولكون قرار الأمم المتحدة لم يذكر صراحة قانون الإدارة المؤقت، وأيد موعد تنظيم الانتخابات فى

يناير سنة ٢٠٠٥م وختم رسالته بقوله: «إن حوارى مع السفير بريمر خلال العام الماضى كان مفيدا للغاية وآمل أن يستمر هذا».

«ورغم أن آية الله كان رافضا للالتقاء بسلطات الاحتلال فإننى تبادلت معه طيلة الشهور الأربعة عشر الماضية ما يزيد عن ٣٠ رسالة عبر وسطاء عديدين، وهى رسائل اعتبرها من ناحيتى أيضا «مفيدة جدا».

* * *

هكذا تحدث «بريمر» المندوب السامى الأمركى فى العراق المحتل - الذى قاد تدمير العراق - الدولة بجميع مؤسساتها من الجيش إلى شرطى المرور - وتدمير كل مقومات الحياة بالنسبة للشعب العراقى - هكذا تحدث عن «التحالف» و «التعاون» مع أكبر المراجع الشيعية ومع الأحزاب الشيعية ذات التوجه الإيرانى.

ولقد علق مكتب آية الله السيستانى على ما أورده بريمر فى مذكراته هذه عن العلاقات والمراسلات بينه وبين السيستانى فلم ينكر ما ذكره بريمر من وجود قنوات الاتصال وإن كان قد نفى وجود رسائل «مكتوبة» - وعلى وجه الدقة تساءل لماذا لم ينشرها بريمر إذا كانت فى حوزته؟!

لقد جاء فى «تعقيب» مكتب السيستانى - المنشور على موقع سماحته «منتدى الفكر العراقى فى ١٤ شوال سنة ١٤٢٧هـ ٧ نوفمبر سنة ٢٠٠٦م].

«وإن سماحة السيد دام ظله بحكم موقعه ومسئوليته فى رعاية الأمة كان لا يزال يستقبل كافة الشخصيات العراقية - السياسية والدينية والثقافية والعشائرية وغيرهم يستمع إلى وجهات أنظارهم واستفساراتهم ويستمعون إلى رؤاه وتوجيهاته.

وكان فى عداء زواره خلال المدة التى حكم العراق فيها السفير بريمر أعضاء من مجلس الحكم ومجلس الإعمار وسائر المسئولين فى الحكومة العراقية، ومن

هؤلاء من كان ينقل إلى سماحته موقف وآراء وتصورات سلطة الاحتلال وممثلها بريمر، بتكليف منه أو من تلقاء نفسه، وكان سماحته يعلق على ما يسمعه منهم في كل القضايا التي لها مساس بالمصالح العليا للشعب العراقي، كقضية الدستور والانتخابات وقانون إدارة الدولة وتشكيل الحكومة المؤقتة وغيرها.

ولم تكن هناك (رسائل متبادلة) بين المرجعية الدينية وبين بريمر. ولو كان قد تلقى من سماحة السيد دام ظله رسالة واحدة لكان ينبغي له أن يثبتها بنصها في كتابه توثيقا لما ادعاه».

* * *

تلك هي وقائع العلاقة بين المرجعية الدينية العظمى وبين بريمر - يمثل هو لاكو القرن الواحد والعشرين في بغداد - كما ذكرها بريمر في مذكراته [عام قضيته في العراق].

إن آية الله السيستاني لم يكن - ولا يمكن أن يكون - عميلا لأمريكا وإنما استعان الرجل بالاحتلال الأمريكي لتحكم الشيعة العراق.. أو تحكم معظمه، بعد تفتيته بالفيدرالية.

وإن أمريكا لم تكن في خدمة السيستاني وإنما استعانت به - وبالأحزاب الشيعية الموالية لمرجعيته - على احتلال العراق..

لقد جمعت «المصالح التكتيكية» بين الطرفين - فكان الزلزال الذي أصاب العلاقات الشيعية السنية في الصميم وإن بقيت التمايزات والاختلافات حول «المصالح الاستراتيجية» لدى كل طرف من الأطراف.

لقد اعتبرت المرجعية الشيعية العظمى السيستاني الاحتلال الأمريكي للعراق تحريرا لبلاد الرافدين.. وذلك على الرغم من أن العراق - قبل الاحتلال:

* كانت أكثر من ثلث شكانه ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ (مليونى أسرة) متزوجين زواجا مختلطا يجمع بين السنة والشيعة.

* كان أكثر من نصف الجيش العراقى - الذى سرحه بريمر - من الشيعة.

* وكان ثلثا رؤساء الفروع الحزبية بحزب البعث الحاكم - من الشيعة.

* حتى أن نسبة كبيرة من القيادات البعثية التى اختفت عند الاحتلال والتى رصدت أمريكا المبالغ الطائلة لمن يرشد عنها، كانت من الشيعة أيضاً.

* لكن الاحتلال الأمريكى قد استعان بالأحزاب الشيعية التى تكونت فى إيران .. والتى تدربت ميليشياتها وتسلحت فى إيران .. بل والتى حاربت لحساب إيران ضد العراق لثمانى سنوات [١٩٨٠ - ١٩٨٨م] أى ضد الجيش العراقى ذى الأغلبية الشيعية!! استعان الاحتلال «بالتشيع الصفوى» ومرجعيته العظمى - ضد أهل السنة وضد «التشيع العربى» - التيار الصدرى - لتدمير العراق وتفتيته باعتبار هذا القصد هو المحقق لمخططات الفرقاء المختلفين: أمريكا والصهيونية وإيران!!

فكان الزلزال الأشد الذى أصاب العلاقات الشيعية السنية على أرض العراق - وخارج أرض العراق.

* * *

* لكن الذى يستطع هذا المخطط تحقيقه هو قمع المقاومة العراقية لجيوش الاحتلال .. ولقد كتب بريمر فى مذكراته ص ٥٧: «وعبرت - فى كتابى للرئيس «بوش» عن إزاء عجزنا عن خلق بيئة آمنة فقد أثبتت المجموعات المتمردة أنها أكثر تنظميا، وأن اختراقها أصعب مما كنا نتوقع .. لقد استطاع الإرهابيون [هكذا يسمى المقاومة] - أن يحولوا العراق إلى الخط الإمامى لحربهم الشيطانية»!

وصدق الله العظيم:{ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الأنفال: ٣٠]

* كذلك سعت هذه المراجع إلى تمزيق النسيج الوطني للشعب العراقي، وذلك بإحلال «الفصل المذهبي» محل الوحدة الوطنية فجمهور غفير من أبناء الشعب العراقي - شيعة وسنة - قد تجاوز «الفصل المذهبي» إما بالاستنارة والتسامح أو للعلاقات القبلية والعشائرية، فقامت المصاهرات والزيجات المشتركة- الشيعية السنية - بين ثلث أبناء الشعب العراقي وبناته - مليوني أسرة فإذا بهذه المراجع تفتى بأن هذا الزواج المختلط إنما «يغضب الله!» الأمر الذى «هدد أكثر من مليوني أسرة عراقية قائمة على الزواج المختلط بين السنة والشيعة - وهو ما يمثل نحو ثلث عدد أسر المجتمع العراقى » بالدمار الأمر الذى أسهم فى زيادة التوتر الطائفي، والفصل المذهبي، والقتل والتهجير على أسس مذهبية وطائفية وأحدث ما يشبه «غسيل الدماغ» عند البعض بل ودفع العديد من الأطفال - في هذه الأسر المشتركة والمختلطة - إلى محاولات الانتحار للحيلولة دون الانهيارات الأسرية التى دعت إليها فتاوى هذه المراجع المتعاونة مع الأمريكان»[١].

فالاحتلال بواسطة ما يسمى «بالعملية السياسية» يقنن في الدستور الذى أشرف «بول بريمر» على وضعه لتمزيق وحدة الأرض العراقية بما يسمى «بالفيدرالية» والمراجع الشيعية المتعاونة مع الاحتلال تبارك ذلك وتفعله على أرض الواقع بإقامة «الفصل المذهبى» بين أبناء الشعب العراقى.

١- انظر ما نشرته صحيفة [الأهرام] المصرية ٤-١١-٢٠٠٦م فى صفحتها الأولى تحت عنوان «طلاق ثلث العراقيين تحاشيا لغضب الله» وذلك نقلا عن «الشبكة الاتحادية الإقليمية للأنباء (إيرين» - التابعة للأمم المتحدة - والتي نقلت ذلك عن (جمعية السلام للعراقيين) - وهي إحدي الجمعيات الأهلية بالعراق.

* كذلك علينا أن ندرك - ونعلن - أن ما يشهده العراق اليوم - بمباركة هذه المراجع - هو التنفيذ لمخطط «إمبريالى صهيونى» قديم، رسمه - لكل العالم الإسلامى - وأعلن عنه المستشرق الصهيونى «برنارد لويس BERNARD IEWIS ونشرته مجلة وزارة الدفاع الأمريكية - البنتاجون INTELLIGENCE RESEARCHPROJECT عند قيام إسرائيل فى أربعينيات القرن العشرين - وفى هذا المخطط التفتيتى للعالم الإسلامى دعا «برنارد لويس» إلى إعادة رسم الخريطة السياسية لعالم الإسلام - من باكستان إلى المغرب - وإنشاء اثنين وثلاثين «كيانا سياسيا» جديدا على أسس دينية ومذهبية وعرقية وقال:

«إن الصورة الجغرافية الحالية للمنطقة لا تعكس حقيقة الصراع وإن ما هو على السطح يتناقض مع ما هو فى العمق:

على السطح كيانات سياسية لدول مستقلة، ولكن فى العمق هناك أقليات لا تعتبر نفسها ممثلة فى هذه الدول ، بل ولا تعتبر أن هذه الدول تعبر عن الحد الأدنى من تطلعاتها الخاصة.

ويرى الإسرائيليون أن جميع هذه الكيانات لن تكون فقط غير قادرة على أن تتحد، بل سوف تشلها خلافات لا انتهاء لها على مسائل حدود وطرقات ومياه ونفط وزواج ووراثه.. إلخ.

ونظرا لأن كل كيان من هذه الكيانات سيكون أضعف من إسرائيل ، فإن هذه ستضمن تفوقها لمدة نصف قرن على الأقل».

وفى تطبيق هذا المخطط على العراق.. قالت المنظمة الصهيونية العالمية فى [استراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات] التى نشرتها مجلتها [الاتجاهات] «كيفونيم» KIVUNIM فى عدد ١٤ نوفمبر سنة ١٩٨٢م.

«إن العراق الغنى بالنفط.. هو المرشح المضمون لتحقيق أهداف إسرائيل. إن تفتيت العراق هو أكثر أهمية من تفتيت سوريا.. فالعراق أقوى من سوريا

وقوته تشكل فى المدى القصير خطراً على إسرائيل أكثر من أى خطر آخر.. هكذا تقوم ثلاث دول «أو أكثر» حول المدن العراقية الرئيسية: البصرة وبغداد والمواصل، إذ تنفصل مناطق شيعية فى الجنوب عن الوسط السنى، والشمال الكردى وإنه فى العصر النووى - لا يمكن ضمان بقاء إسرائيل إلا بمثل هذا التفكيك، ويجب من الآن فصاعدا بعثرة السكان، وهذا دافع استراتيجى وإذا لم يحدث ذلك فليس باستطاعتنا البقاء مهما كانت الحدود.»[1].

هذا هو المخطط الصهيونى الرسوم والمنشور - قبل ستين عاما : والذى ينفذه الغزاة الأمريكان - اليوم - على أرض العراق.. بالتعاون مع الأحزاب الشيعية ذات الولاءات الإيرانية وبمباركة عدد من كبار المرجعيات الشيعية!.

* * *

وإذا كان البعض من السلفية الوهابية - يتخذ من هذه المأساة منطلقا للتأكيد على مذهبه فى تكفير الشيعة واستحلال دمائهم.. فإننا نرفض هذا الغلو التكفيرى.. وذلك التعميم والإطلاق ونرى أن هذه المأساة يجب أن تكون دافعا يضاعف الجهود الفكرية والعلمية والسياسية لحوار شيعى سنى، يبحث عن جوهر الخلاف.. وعن سبل التقريب بين الشيعة والسنة ففى ذلك طوق النجاة من هذه المأساة.. والتحصين الحقيقى لجدار الأمة ضد الاختراق والضمان كى لا تتكرر هذه المأساة فى أى مكان آخر من عالم الإسلام.. وأيضا السبيل الحقيقى لإخراج العراق من «العار .. والدمار الذى صنعته به هذه المأساه».

إن الأزهار كثيرا ما تنبت فى أرض المجازرا

وإن الشروق الساطع لا يأتى إلا بعد ظلام الليل البهيم.

١- انظر: محمد السماك [الاقليات بين العروبة والإسلام] ص ١٣١ - ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤٤ طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م ، وانظر كتابنا [الإسلام والتعددية] ص ٢٥٧ - ٢٧٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م.

وإن الأمم العظيمة هى التى تبحث عن معدنها النفيس فى مواجهة أشرس التحديات.

* وعلينا أن نلح دائما وأبدا على الالتزام بالمنهاج القرآنى.. منهاج[لَيْسُوا سَوَاءً] [آل عمران: ١١٣]

فالشيعة ليسو سواء..

والسنة ليسوا سواء..

وكذلك حال غير المسلمين مع المسلمين فهم ليسوا سواء..

وفى مواجهةالمراجع والأحزاب الذين تواطئوا مع «الصليبية - الصهيونية» وتعاونوا مع «بول بريمر» علينا أن نبى - وخاصة فى المجال العلمى والفكرى - جبهة الوحدة الإسلامية ضد أعداء الإسلام والمسلمين .. تلك الجبهة التى لن تقوم لها قائمة إلا بتحقيق التقارب الحقيقى بين الشيعة والسنة.. الأمر الذى نذر له الدكتور أحمد الكاتب جهوده الفكرية والعلمية فاستحق منا التقدير والتأييد.. والترحيب بأعماله الفكرية الساعية إلى بناء التقارب بين الشيعة والسنة على أسس فكرية صلبة وموضوعية .. تستبعد الغلو من كلا الطرفين .. وتدعو المخلصين، من الشيعة والسنة، إلى كلمة سواء.

* * *

قضايا الخلاف

فى الحديث عن العلاقة بين الشيعة والسنة.. علينا أن نتحلى بالموضوعية والشجاعة والصراحة التى تجعلنا نعلن:

أن الخلاف بينهما قد مثل - ولا يزال يمثل «أعمق وأعقد وأخطر الخلافات التى حدثت بين المسلمين على امتداد تاريخ الإسلام».

وإذا كان التاريخ الإسلامى قد شهد خلافات فكرية وسياسية عميقة ومعقدة بين عدد من الفرق الإسلامية - كالخلاف بين الخوارج وبين أهل السنة والاختلاف بين المعتزلة وبين الأشعرية والماتريدية - ثم تجاوز التطور هذه الاختلافات.. فإن الخلاف بين الشيعة والسنة قد تميز بأمرين جعلاه أعقد وأعمق من سائر تلك الاختلافات التى مايزت بين سائر فرق المسلمين.

الأمر الأول: هو ذهاب الشيعة إلى وضع أساس الخلاف - نظرية الإمامة - بين العقائد الدينية ومبادىء الاعتقاد وأصوله وثوابته.. أى جعلها ثابتا من ثوابت الاعتقاد الدينى وليست مجرد «فكر» _ «اجتهاد» إنسانى تجرى عليه سنن التجديد والتطوير والتغيير.

والأمر الثانى: هو تميز الحياة الدينية والاجتماعية الشيعية بتحويل مفردات هذا الخلاف ومروياته وتراثه وتاريخه وأدبياته إلى «منهاج تربوى» تصاغ به العقول والوجدانات وتشحن به الذكريات منذ الولادة وحتى مراسم الدفن والعزاء على النحو الذى يجعل الإنسان الشيعى مشحونا بكم من نقاط الافتراق وأسباب العداء لمن تصورهم أعداء آل البيت «النواصب» المغتصبين لحقهم الإلهى فى الإمامة.. تجددها الذكريات والمناسبات والزيارات التى لا

يخلو منها وقت من الأوقات .. هذه الشحنات الدينية والنفسية والعاطفية ضد أهل السنة، الذين يضعهم هذا المنهاج التربوي في سلة واحدة، منذ أبي بكر الصديق [٥١ ق هـ - ١٣ هـ ٥٧٣ - ٦٣٤م] وجمهور الصحابة. وحتى كاتب هذه الصفحات!

نعم «إننا أمام أعقد وأعمق خلاف حدث في تاريخ الأمة الإسلامية».

وفي التقريب الحقيقي بين الشيعة والسنة، نجد أنفسنا أمام مهمة كبرى، إن تكن مستحيلة فإنها من أصعب المهام التي تواجه العقل المسلم - الشيعي والسني - وذلك إذا التزمنا أمانة العلم والعلماء ولم تجرفنا أساليب الساسة والإعلاميين!.

* * *

* ولأن الأخ الكريم الدكتور أحمد الكاتب هو من أكثر علماء الشيعة غيرة على وحدة الأمة الإسلامية وموضوعية في نقد المواريث الفكرية - الشيعية والسنية - «وفي مقدمة الذين حددوا نقاط الخلاف بين الفريقين.. وقدموا الحلول الموضوعية لتجاوز هذا الخلاف المزمن وتأسيس التقريب على أسس موضوعية.

لذلك كله، كانت سعادتي دائمة وغامرة عندما أقرأ له.. وعندما أقدم لعمل فكري من أعماله المتميزة، التي يكرسها لنقد الموروث الفكري.. والدفع بالعقل المسلم - عند الشيعة والسنة إلى ساحة الإخاء والتقريب.

* لقد رصد الدكتورأحمد الكاتب - في هذا الكتاب [السنة والشيعة: وحدة الدين - خلاف السياسة والتاريخ] - ست قضايا خلافية، رآها - وأنا معه تماما - هي التي باعدت بين الشيعة والسنة منذ تبلور الشيعة كفرقة - أو كفرق - وحتى الآن... وهذه القضايا الخلافية هي:

١ - الخلاف فى الإمامة:

عندما جعلها أهل السنة من السياسات والفقهيات والفروع تختارها الأمة التى هى مصدر السلطات السياسية - بالشورى والاختيار والبيعة .. ثم تراقب الأمة الإمام.. وتحاسبه.. وتعزله عند الاقتضاء.. بينما رأتها الشيعة «إمامة إلهية» وشأنا سماويا بعين الله - سبحانه وتعالى - فيها الأئمة بالنص والوصية .. فهو الذى اصطفاهم اصطفى الأنبياء والمرسلين، وجعل لهم من «العصمة» والمكانة والسلطان ما يعلو على مكانة الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين.. ومن ثم فإن الإيمان بهذه «الإمامة الإلهية» هو عقيدة دينية، ودعامة من الدعائم الثوابت للدين.. وليست اجتهادا بشريا يتطرق إليه التجديد والاجتهاد والتغيير.

٢ - والخلاف الثانى حول القرآن الكريم:

وهو خلاف ابتدعه علماء الشيعة الإخباريون.. عندما لم يجدوا فى المصحف المعتمد لدى الأمة الإسلامية - منذ عصر النبوة - ما يشهد لنظريتهم فى «الإمامة الإلهية» المنحصرة فى أئمتهم من آل البيت .. فلم يكتفوا «بالتأويل» لبعض الآيات وإنما قالوا بتحريف «التنزيل» القرآنى تحريفا أسقط - فى رأى بعضهم - ثلثى القرآن الكريم!

لكن المدرسة الأصولية الشيعية - عند الإثنى عشرية - قد جاءت - فى القرن التاسع عشر الميلادى - فنفت حدوث تحريف فى «التنزيل» ووقفت فى تأييد نظرية الإمامة الإلهية عند «التأويل» .

ولقد نشر - بطهران كتاب [أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة] سنة ١٩٨٥م.. للشيخ رسول جعفر يان - يحمل هذه المراجعة لدعاوى تحريف القرآن الكريم ولقد رحبنا بهذه المراجعة، وقمنا بإعادة طبع الكتاب مع التقديم له - بالقاهرة سنة ٢٠٠٦م.

٣ - والخلاف الثالث حول الحديث النبوى الشريف:

الذى أخذه أهل السنة والجماعة عن رسول الله ﷺ عبر الرواة بينما أخذه الشيعة عن الأئمة لأنهم - فى رأيهم - هم وحدهم المعصومون، المؤتمنون على الشريعة، والقيمون حتى على القرآن.. أما الأمة - بمن فى ذلك الرواة فيجوز عليهم الضلال والكفر والردة والفسوق.

٤ - والخلاف الرابع حول التقية:

أى إظها الإنسان غير ما يبطن - ولقد جعلها الشيعة دينا يتدينون به ورووا عن أحد أئمتهم :« أن التقية دينى ودين آبائى .. ولا دين لمن لا تقية له».

ولقد استشهدوا على جواز التقية بالآية القرآنية: { لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: ٢٨ ، ٢٩].

بينما قال أهل السنة والجماعة - انطلاقا من منطوق الآية القرآنية - : إنها لا تجوز إلا عند ضرورة حفظ النفس فى الصراع مع الكافرين - وليس فى العلاقات بين المؤمنين - ويشهد لذلك - أيضاً تطبيقاتها فى حال عمار بن ياسر [٥٧ ق هـ - ٣٧ هـ ٥٦٧ - ٦٥٧م] عندما نطق بكلمة الكفر إنقاذ النفسه من الهلاك أثناء تعذيبهم له: {إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [النحل: ١٠٥ - ١٠٧].

أما التقية خارج هذا الإطار، فإنها - بنظر أهل السنة والجماعة - استحلال للكذب، تزداد بشاعته عندما يعدها أهلها دينا يتدينون به.. وعندما تمارس فى التعامل بين المؤمنين بدين واحد.

٥ - والخلاف الخامس فى الفقه:

ولأن الفقه - عند الشيعة والسنة - هو علم الفروع، كان هذا الميدان من ميادين الخلاف هينا، لأن باب الاجتهاد فيه مفتوح لمناقشة القضايا الخلافية - من مثل نكاح المتعة وزيادة الشيعة فى الأذان «حى على خير العمل» و «أشهد أن عليا ولى الله» والجمع الدائم لصلاة العصر مع الظهر ولصلاة العشاء مع المغرب .. والحديث عن أن «العتبات المقدسة» الشيعية هى «الأشرف» بأفعل التفضيل - على حين أن الحرمين - المكى والمدنى - كل منهما «شريف» فقط لا غير ! وتسمية المساجد «حسينيات» بدلا من اسمها القرآنى - المساجد - ووضع أعداد من الأدعية والقنوت فى الصلوات لتغاير صلوات أهل السنة والجماعة.. واستخدام عبارة مثل «باسمه تعالى» بدلا من «بسم الله الرحمن الرحيم» و «صدق الله العلى العظيم» بدلا من «صدق الله العظيم» إلى آخر هذه الاختلافات الفقهية، التى هى فى معظمها ثانوية وهينة وإن لعبت دورا سلبيا فى تصوير الإسلام الشيعى - لدى العامة - وكأنه «إسلام موازى» لإسلام أهل السنة والجماعة! الأمر الذى جعل فقهاء الشيعة لا يأخذون شيئا عن فقه المذاهب السنية بينما فتح فقهاء السنة الأبواب لاحتضان كل تراث المذاهب الفقهية الإسلامية وأجاز عدد من كبار علمائهم التعبد على أى من المذاهب الفقهية المعتبرة والمدونة أصولها ضمن تراث الفقة الإسلامى العام..

لقد أصدرت مصر موسوعتها الفقهية على المذاهب الثمانية : المالكى .. والحنفى.. والشافعى.. والحنبلى .. والجعفرى.. والزيدى .. والإباضى.. والظاهرى.. بينما نص دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية على أن المذهب

الجعفرى وحده هو مذهب إيران كلها - بمن فيها من السنة! .. بل ونص هذا الدستور على أن جميع مواده قابلة للتعديل باستثناء هذه المادة التى تحدد مذهب الدولة!

٦ - والخلاف السادس بين الشيعة والسنة هو الذى دار حول صحابة رسول الله ﷺ :

فلقد انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وعدد الذين دخلوا فى دين الإسلام ١٢٤٠٠٠ (مائة وأربعة وعشرين ألفا) - فى جزيرة العرب التى كان عدد سكانها يومئذ مليون نسمة.

وعندما رصد علماء أهل السنة والجماعة أسماء «أعلام الصحابة» الذين تربوا فى مدرسة النبوة، والذين أقاموا الدين، وأسسوا الدولة، ووضعوا أسس الحضارة. والذين فتحوا فى ثمانين عاما أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون، فأزالوا بهذه الفتوحات التحريرية قوى الهيمنة والقهر الحضارى - الروم - والفرس - ثم حرروا ضمائر شعوب الشرق - فتركوهم وما يدينون - بعد أن حرروا بلادهم من القهر الاستعمارى والدينى والحضارى ومن النهب الاقتصادى الذى دام عشرة قرون من «الاسكندر الأكبر» [٣٥٦ - ٣٢٣ق. م] فى القرن الرابع قبل الميلاد - وحتى «هرقل» [٦١٠ - ٦٤١م] فى القرن السابع للميلاد.

عندما رصد علماء أهل السنة والجماعة أسماء أعلام الصحابة - الذين أقاموا الدين وحملوا الشريعة ورووا السنة - وغيروا وجه الدنيا واتجاه التاريخ .. رصدوا أسماء نحو ثمانية آلاف صحابى - منهم أكثر من ألف امرأة.

لكن الشيعة ذهبوا فحكموا على جمهور هؤلاء بالكفر.. والردة.. والنفاق.. والمروق من دين الإسلام.. ولم يستثنوا من هذه الأحكام الجائرة والغريبة

والعجيبة سوى أربعة أو خمسة أو أكثر قليلا! ثم ذهبوا فعمموا هذه الأحكام على كل من والى أو أحب أحدا من هؤلاء الصحابة.. أى أنهم قد سحبوا هذه الأحكام على سائر أهل السنة والجماعة الذين يمثلون ٩٠٪ من تعداد أمة الإسلام.

* * *

تلك هى القضايا الخلافية الست التى رصدها الدكتور أحمد الكاتب فى كتابه والتى باعدت بين الشيعة والسنة.. والتى جعلت الخلاف بينهما أخطر وأعقد وأعمق خلاف ظهر فى تاريخ الإسلام والمسلمين.

* * *

منهاج النظر الخلافات

ولأن المنهاج العلمى فى النظر إلى القضايا الخلافية بهدف محاصرتها.. ومعالجتها .. والتقريب بين فرقائها، يدعو إلى تحديد «الحلقة الرئيسية» من بين «حلقات» الاختلافات والتركيز على سبل حل هذا الخلاف الرئيسى لأنه هو الذى سيؤثر - بدرجات متفاوته - فى حل بقية الخلافات لأن هذا هو المنهج العلمى فى معالجة مجمل هذه الخلافات الستة.. فإننا ندعو إلى التركيز على «الخلاف الأساسى» و «القضية الأم» التى أثمرت سائر الاختلافات الأخرى، والتى سيفضى حل الخلاف حولها - أو حتى تقريب وجهات النظر - إلى حل سائر الاختلافات الستة التى رصدها الدكتور أحمد الكاتب فى هذا الكتاب.

وهذه القضية الأم التى مثلت - ولا تزال تمثل «الخلاف الأم» و الأساسى ، الأول والجوهرى و «المحورى» بين الشيعة والسنة، هى قضية الخلاف حول «نظرية الإمامة».

الإمامة عند أهل السنة

لقد أجمع أهل السنة واجتمعوا على أن الإمامة من السياسات والفقهيات والفروع .. وعلى أنها ليست من العقائد ولا من أمهات العقائد، وأنها شأن من شئون الاجتهاد الفقهي، يتولاها من تختاره الأمة - بواسطة أولي الأمر فيها - بالشورى والاختيار .. تبايعه الأمة.. ثم تراقبه وتحاسبه.. وتعزله عند الاقتضاء، ومن ثم - وهذا هام وجوهري، معيار فاصل - فإن الاختلاف في الإمامة وحولها وبسببها إنما يدخل جميعه في الفقه والفروع.. ومعايير هذا الاختلاف هي «الصواب والخطأ» و «النفع والضرر» وليس «الكفر والإيمان» - الذي هو معيار الاختلاف في عقائد الدين.

على هذا أجمع أهل السنة والجماعة، واجتمعت مذاهب فقهائهم وعلمائهم وفلاسفتهم على مر تاريخهم الفكري فقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ - ١٠٥٨ - ١١١١م]:

«إن نظرية الإمامة ليست من المهمات وليست من فن المعقولات فيها، بل من الفقهيات [الفروع][١]».

وقال إمام الحرمين الجويني [٤١٩ - ٤٧٨ هـ ١٠٢٨ - ١٠٨٥م]:

«إن الكلام في الإمامة ليس من أصول الاعتقاد»[٢].

وقال عضد الدين الايجي [٧٥٦ هـ ١٣٥٥م] والجرجاني [٧٤٠ - ٨١٦ هـ ١٣٤٠ - ١٤١٣م]:

---

١ - الغزالي «الاقتصاد في الاعتقاد» ص ١٣٤ طبعة مكتبة صبيح - القاهرة- بدون تاريخ.

٢ - الجويني [الارشاد] ٤١٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠م.

«إن الإمامة ليست من أصول الديانات والعقائد ، بل هى من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين»[1].

وقال الشهر ستانى [٤٧٩ - ٥٤٨هـ ١٠٨٦ - ١١٥٣م]:

«إن الإمامة ليست من أصول الاعتقاد»[2].

وقال ابن خلدون [٧٣٢ - ٨٠٨هـ ١٣٣٢ - ١٤٠٦م]:

«وشبهة الشيعة الإمامية فى ذلك إنما هى كون الإمامة من أركان الدين.. وليس كذلك، وإنما هى من المصالح المفوضة إلى نظر الخلق»[3].

وهذا الإجماع السنى على أن الإمامة من السياسات والفقهيات والفروع ، وليست من العقائد وأنها الاعتقاد وأركان الدين، قد أثمر الثمرة الطبيعية والمنطقية التى تقول : إن الخلاف حول الإمامة وما يتعلق بها معاييره: «الصواب والخطأ» و «النفع والضرر» و ليست «الإيمان» و «الكفر» وبعبارة أبو حامد الغزالى:

«فإن النظريات قسمان: قسم يتعلق بأصول القواعد، وقسم يتعلق بالفروع. والخطأ فى أصل الإمامة وتعينها وشروطها وما يتعلق بها، لا يوجب شىء منه التكفير»[4].

ولذلك - وهذا هام جدا - فإن أهل السنة والجماعة ، مع نقدهم الشديد لمذهب الشيعة فى الإمامة، فإنهم لا يكفرونهم بمذهبهم هذا.. إنهم يعتبرون مذهب الشيعة فى الإمامة قولا شنيعا وظاهر البطلان لكن لأن هذه الإمامة هى

---

١ - «شرح المواقف» جـ١ ص ٢٦١ طبعة القاهرة ١٣١١ هـ.

٢- الشهر ستانى [نهاية الإقدام فى علم الكلام] ص ٤٧٨ تحقيق: الفريد جيوم . طبعة مصورة - بدون تاريخ ولا مكان الطبع.

٣ - ابن خلدون [المقدمة] ص ١٦٨ طبعة القاهرة ١٣٢٢هـ.

٤ - الغزالى [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] ص ١٥ طبعة القاهرة ١٩٠٧م.

من الفروع والسياسات والفقهيات وليست من عقائد الدين، فإن الخلاف حولها «لا يعظم ضـرره فى الدين» ومن ثم فـلا يجوز بسببه التكفير وبعبارة حجة الإسلام الغزالى.

«فـإن مـا لا يعظم ضـرره فـى الدين فـالأمـر فـيـه أسـهل وإن كـان القـول فـيـه شنيعا ظاهر البطلان، كقول الإمامية المنتظرة: إن الإمام مختف فى سرداب فإنه ينتظر خروجه ، فإنه قـول كاذب، ظاهر البطلان، شنيع جدا ، ولكن لا ضرر فيه على الدين، وإنما الضرر على الأحمق المعتقد لذلك، إذ يخرج كل يوم من بلده لاستقبال الإمـام حتى يدخل «الليل» فيرجع إلى بيته خـاسئا وهذا مـثـال - والمقصود: أنه لا ينبغى أن يكفر بكل هذيان وإن كان ظاهر البطلان . . »[1].

وهذا الموقف السنى الشديد الوضوح والحسم، فى أن الإمامة من السياسات والفروع والفقهيات وليست من العقائد الدينية ومن ثم فإنه لا يجوز ولا يصح التكفير لأى من المختلفين فيها وحولها هذا الموقف السنى مؤسس على ما اجتمع عليه أهل السنة والجماعة فى مذاهبهم المعتبرة من الامتناع عن تكفير من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، المصدق لما جاء به الرسول ﷺ :

وفى تعقيد هذا المذهب يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى:

«إعلم إن شرح ما يكفر به وما لا يكفر به يستدعى تفصيلا طويلا.. ولكن اقنع [الآن] بوصية وقانون:

أما الوصية: فأن تكفَّ لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك ما داموا قائلين لا إلـه إلا الله محمد رسول الله ﷺ، غير مناقضين لها. والمناقضة تجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ بعذر أو غير عذر، فإن التكفير فيه خطر والسكوت لا خطر فيه.

---

١ - المصدر السابق. ص ١٩.

وأما القانون: فهو أن تعلم أن النظريات قسمان: قسم يتعلق بأصول القواعد، وقسم يتعلق بالفروع، وأصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله، وبرسوله واليوم الآخر وما عداه فروع.

وأعلم أن لا تكفير في الفروع أصلا، إلا في مسألة واحدة وهي أن ينكر أصلا دينيا علم من الرسول ﷺ بالتواتر لكن في بعضها تخطئه، كما في الفقهيات وفي بعضها تبديع كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة.

واعلم أن الخطأ في أصل الإمامة وتعيينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شيء منه تكفير فقد أنكر ابن كيسان [١٤٠ هـ ٧٥٧م] أصل وجوب الإمامة ، ولا يلزم تكفيره، ولا تلتفت إلى قوم يعظمون أن الإمامة ويجعلون الإيمان بالإمام مقرونا بالإيمان بالله ورسوله ولا إلى خصومهم المكفرين لهم بمجرد مذهبهم في الإمامة ، فكل ذلك اسراف.، إذ ليس في واحد من القولين تكذيب للرسول ﷺ أصلا ومتى وجد التكذيب وجب التكفير وإن كان من الفروع»[1].

وهنا قد يقول قائل: إن الغزالي يشير إلى أن من «خصوم الشيعة الإمامية» من يكفرهم - أي يبادلهم تكفيرا بتكفير - بسبب مذهبهم في الإمامة، الذي جعلوه مقرونا بالإيمان بالله ورسوله ، ومن ثم كفروا من يخالفهم فيه».

ونحن نقول:نعم.. هناك قلة من أهل السنة والجماعة لا يمثلون المذاهب السنية والمعتبرة والمنتشرة في الفضاء السني بادلوا الشيعة الإمامية تكفيرا بتكفير. «وإن كنا نلمح أن سبب هذا التكفير لهؤلاء الشيعة ليس الغلو الشيعي في تأليه الأئمة وإنما هي التقية، التي تجيز الكذب، بل توجبه أحيانا وتجعله دينا «لأن من يجيز الكذب في أمور الدين، إنما يلقي ظلالا سلبية على حقيقة إعلانه التصديق بما جاء به الرسول ﷺ ويشهد على هذا الذي ذهبنا إليه قوله شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م]:

---

١ - المصدر السابق. ص ١٥ ، ١٦.

«والذى نختاره أن لا نكفر أحدا من أهل القبلة والدليل عليه أن نقول:

المسائل التى اختلف أهل القبلة فيها، مثل: أن الله تعالى هل هو عالم بالعلم أو بالذات؟ وأنه تعالى هل هو موجد الأفعال العباد أو لا؟ وأنه هو متحيز؟ وهل هو فى مكان وجهة؟ وهل هو مرئى أم لا؟ لا تخلو إما أن تتوقف صحة الدين على معرفة الحق فيها أو لا تتوقف والأول باطل، إذ لو كانت معرفة هذه الأصول من الدين لكان الواجب على النبى ﷺ أن يطالبهم بهذه المسائل، بل ما جرى حديث من هذه المسائل فى زمانه عليه السلام ولا فى زمان الصحابة والتابعين رضى الله عنهم، علمنا أنه لا تتوقف صحة الإسلام على معرفة هذه الأصول وإذا كانت كذلك لم يكن الخطأ فى هذه المسائل قادحا فى حقيقة الإسلام، وذلك يقتضى الامتناع عن تكفير أهل القبلة».

فابن تيمية الذى يؤمن بأن الإمامة من الفروع والفقهيات وليست من الأصول - يذهب إلى تفصيل ما أشار إليه كثيرون من أئمة أهل السنة والجماعة من أن هناك «أصولا» دينية «لا تتوقف صحة الإسلام على معرفتها» ومن ثم فإن «الخطأ فى مثل هذه الأصول لا يقدح فى حقيقة الإسلام، وذلك يقتضى الامتناع عن التكفير» لأطراف الخلاف فى هذه «الأصول».

ثم يمضى ابن تيمية إلى تأصيل وتقعيد هذا المعيار فيقول:

«إن الكفر حكم شرعى، متلقى عن صاحب الشريعة، والعقل قد يعلم به صواب القول وخطؤه وليس كل ما كان خطأ فى العقل يكون كفرا فى الشرع، وكما أنه ليس كل ما كان صوابا فى العقل يجب فى الشرع معرفته.. وإنما الكفر يكون بتكذيب الرسول فيما أخبر به أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه.. وقد نقل عن الشافعى [١٥٠ - ٢٠٤هـ ٧٦٧ - ٨٢٠م] رضى الله عنه أنه قال: لا أرد شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية فإنهم يعتقدون حل الكذب.

أما أبو حنيفة [٨٠ - ١٥٠ هـ ٦٩٩ - ٧٦٧م] - رضى الله تعالى عنه - فقد حكى الحاكم [٣٣٤ هـ ٩٤٥م] صاحب [المختصر] فى كتاب [المنتقى] عن أبى حنيفة أنه لا يكفر أحدا من أهل القبلة «وحكى أبو بكر الرازى [٢٥١ -٣١١ هـ ٨٦٥ - ٩٢٣ م] عن الكرخى [٢٦٠ - ٣٤٠ هـ ٨٧٤ - ٩٥٢م] وغيره مثل ذلك»[1].

فابن تيمية يحكى عن أئمة المذاهب الفقهية السنية اجتماعهم على عدم تكفير أحد من أهل القبلة باستثناد من يعتقد استحلال الكذب - مثل الخطابية - من الشيعة الإمامية - الذين غلوا فى الأئمة إلى حد التأليه.. ومع ذلك فإن تكفير الشافعى لهم قد جاء بسبب استحلالهم الكذب - التقية - لأن هذا هو الذى يقدح فى حقيقة إسلامهم، وليس بسبب مذهبهم فى الإمامة، لأنه - رغم شناعته وظهور بطلانه - لا ضرر فيه على الدين - على حد قول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى.

ذلك هو مذهب أهل السنة والجماعة فى نظرية الإمامة أولى المسائل.. وأعقد المسائل.. وأخطر المسائل التى اختلف فيها المسلمون.. والتى بسببها انقسمت الأمة الإسلامية إلى شيعة وسنة «فكان الخلاف الذى أثمر وأفرز الاختلافات الأخرى حول : القرآن والسنة» والتقية والفقة والصحابة.

فالذين ذهبوا من الشيعة إلى أن القرآن الكريم قد أصابه التحريف إنما ذهبوا إلى ذلك لدعم مذهبهم فى الإمامة الإلهية لأئمتهم من آل البيت.

وهم قد ذهبوا إلى إقامة سنة خاصة بهم، نسبوها إلى أئمتهم لتشهد على صحة مذهبهم فى الإمامة، وعلى فساد مذهب أهل السنة، والجماعة فيها.

---

١ - ابن تيمية [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول] جـ ١ ص ٥٠، ١٤٤، ١٤٥ طبعة القاهرة سنة ١٣٢١هـ.

وذهبوا إلى استحلال التقية، وجعلها دينا، ليستحلوا الكذب على خصومهم فى نظرية الإمامة وليحافظوا على كيانهم فى مواجهة من اعتبروهم كفاراً ومشركين بسبب مخالفتهم لهم فى هذه الإمامة».

وهم قد ذهبوا إلى تكفير جمهور الصحابة ، وكان من والاهم ورضى بخلافتهم، لا لشىء إلا لأن هؤلاء الصحابة - برأيهم - قد خالفوا مذهبهم فى الإمامة، عندما جعلوها شورى، تتم بالاختيار والبيعة، وقالوا بأنها سلطة مدنية ملتزمة بالمرجعية الدينية والأمة فيها هى مصدر السلطات، لأنها هى المستخلفة لله.. ولم يجعلوها إمامة إلهية ، يتولى الأئمة فيها سلطان الله، حتى لتكون لهم المكانة التى لا يبلغها ملك مقرب ولا نبى مرسل.. والتى تجعل لهم سلطة تكوينية على كل ذرات الكون، هى كل سلطات الله وسلطانه!!.

فهى - إذن - هذه «الإمامة الإلهية» هى موطن الخلاف الأول، والأعمق. والأعقد.. والذى يجب أن يدور حوله الحوار الموضوعى والجاد والصبور.. والذى بدون حدوث نوع من التوافق حوله سيظل الحديث عن التقريب بين الشيعة والسنة لونا من «الحرث فى البحر» وضربا من الأوهام التى لا تجوز على العلماء ولا تليق بالعقلاء.

* * *

الإمامة عند الشيعة الإمامية

وإذا كانت هذه هى وجهة نظر أهل السنة والجماعة فى القضايا الخلافية بين الشيعة والسنة وفى ترتيب هذه القضايا وتحديد «الحلقة الرئيسية» التى يفضى حلها أو تقريب وجهات النظر فيها - إلى التأثير فى بقية «الحلقات».

فما هو رأى الشيعة الإمامية - وخاصة الإثنى عشرية - فى هذا الموضوع؟

لقد ذهبت الشيعة الإمامية - بمن فى ذلك الإثنى عشرية - إلى جعل الإمامة شأنا إلهيا ، لا علاقة له بالبشر والأمة فهى اصطفاء إلهى ونص وتعيين من السماء، لا علاقة لها بالشورى والاختيار والبيعة.

وذهبوا إلى إعطاء الأئمة - من آل البيت من نسل على وفاطمة - سلطانا إلهيا ، يجعل إمامتهم فوق النبوة والرسالة والأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين».

وجعلوا هذه الإمامة «لطفا عاما» وممتدا بينما النبوة والرسالة «لطف خاص» طوى التاريخ صفحته.

وذهبوا فأضفوا على أئمتهم ليس فقط (العصمة)وإنما الأساطير التى يحار العقل أمام قبولها من قبل العلماء والفلاسفة والفقهاء الذين امتلأ بهم ويمتلىء الفضاء الشيعى!

ذهب الشيعة إلى ذلك التأليه للإمامة والتأديه للأئمة .. وإلى ذلك الغلو الذى لا يقف عند «الإخباريين القدماء» الذين سبقوا المدرسة «الأصولية الاجتهادية» وإنما الذى بعثته وباللغرابة - المدرسة الشيعية الحديثة والمعاصرة

التى تبلورت فى القرن التاسع عشر الميلادى، والتى لا تزال سائدة وحاكمة ومتحكمة في القضاء الشيعي ولدى المرجعيات الشيعية الكبرى حتى هذه اللحظات!

* لقد ابتدع الشيعة فى الفكر الإسلامى - نظرية «الحكم بالحق الإلهى» - التى سادت فى الكروية الفارسية و«الفرعونية المصرية»و«القيصرية الرومانية.. والكنيسة الكاثوليكية فالإمام معين من الله، لا مختاراً من الناس..بل لقد ادعوا لعرقه وسلالته امتيازا ليس لأحد من الناس فنسبوا إلى على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - قوله:

«إننى وأهل بيتى كنا نورا يسعى بين يدى الله تعالى قبل أن يخلق الله آدم بأربعة عشر ألف سنة، فلما خلق الله آدم وضع ذلك النور فى صلبه وأهبطه إلى الأرض، ثم جعله فى السفينة فى صلب نوح، ثم قذف به فى النار فى صلب إبراهيم، ثم لم يزل الله ينقلها فى الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة من الآباء والأمهات لم يلق منهم على سفاح قط»[1].

* ثم يقولون: إن التعيين والنص كانا من الله - سبحانه وتعالى - على علي، وليس من الرسول ﷺ ويرون أن رجلا سأل الإمام أبا جعفر محمد بن على زين العابدين [٣٨ - ٩٤هـ ٦٥٨ - ٧١٢م]:

«حدثنى عن ولاية علي، آمن الله؟ أو من الرسول؟.. فغضب، ثم قال:

- ويحك: كان رسول الله أخوف لله من أن يقول مالم يأمره به الله، بل افترضه كما افترض الصلاة والزكاة والصوم والحج، فرض الله على العباد خمسا، فأخذوا أربعا وتركوا واحدا الصلاة».. ثم نزلت الزكاة.. ثم نزل

---

١ - عبد الحسين أحمد الأمينى [الغدير فى الكتاب والسنة والأدب] جـ ١ ص ١٦٤. طبعة بيروت - الثالثة.

٢ - الكلينى [الأصول من الكافى] جـ ١ ص ٣٩٠ تحقيق : علي أكبر الغفارى . طبعة طهران سنة ١٣٨٨ هـ.

الصوم.. ثم نزل الحج.. ثم نزلت الولاية..»[٢].

* وهذا النص الإلهى والتعيين الربانى قد سجلهما الله - سبحانه وتعالى - كما يقولون- فى لوح أخضر، يشبه الزمرد، بحروف بيضاء «شبه لون الشمس» رآه أبو جابر عبد الله الأنصارى فى يد فاطمة عليها السلام، فلما سألها عنه قالت:

«هذا لوح أهداه الله إلى رسوله، فيه اسم أبى، واسم بعلى، واسم بنى، واسم الأوصياء من ولدى»[١] «ولم ينزل من الله كتاب مختوم إلا الوصية..»[٢].

* ولما كانت الصلة التى ميزت عليا والحسن والحسين من غيرهم من آل أبى طالب، بل وعن غير الحسن والحسين من ولد على، هى الارتباط بفاطمة بنت الرسول ﷺ قالت الشيعة الإمامية: إن الله هو الذى عين هذا الزواج، زواج على من فاطمة، وقالوا:

« أنه لا خلاف بين أهل النقل أن الله تعالى هو الذى اختار أمير المؤمنين لنكاح سيدة النساء.. وأن النبى قال: إنى لم أزوج فاطمة حتى زوجها الله تعالى من سمائه..»[٣].

* وقالوا: إن سلطان الإمام السياسى مترتب على سلطانه الإلهى، إذ الأصل فيه أن يكون إماما حتى لو لم يتمكن من تولى السلطة الزمنية، ومن ثم فإن إمامته نابعة من كونه حافظا للشريعة والدين، حجة لله على عباده فالامة ليست الحجة، والروايات المتواترة لا تضمن للشرع أن يكون بها حجة، بل والقرآن ذاته ليس هو الحجة، وإنما الحجة هو الإمام، وهم يفسرون القول الذى

---

١ - المصدر السابق، جـ١ ص ٨.

٢ - المصدر السابق، جـ١ ص ٢٧٩.

٣ - الطوسى (أبو جعفر) [تلخيص الشافى] جـ ١ ق ٢ ، ص ٢٧٩. تحقيق: السيد حسين بحر العلوم، طبعة النجف سنة ١٣٨٣ - سنة ١٣٨٤هـ).

نسبوه إلى على بن أبى طالب:

«اللهم إنك لا تخلى أرضك من حجة لك على خلقك»[1].

يفسرون الحجة بالإمام وحده فينسبون إلى الإمام جعفر الصادق [٨٠ - ١٤٨ هـ ٦٩٩ - ٧٦٥م] قوله:

«إن الحجة لا تقوم لله على خلقه إلا بإمام حى يعرف»[2] وأنه لابد من إمام حتى «لو كان الناس رجلين لكان أحدهما الإمام.. وأن آخر من يموت الإمام لئلا يحتج أحد على الله عز وجل أنه تركه بغير حجة لله عليه..»[3].

* وهم - لذلك - يرفضون أن تكون الأمة، فى نقلها عن الرسول - الذى هو حجة - حجة فى هذا النقل، لأنهم يجوزون على الأمة جميعها الخطأ والزلل، بل والكفر والردة - ما عدا الإمام - فضلا عن السهو والنسيان - ويقولون:

إن نقل الأمة لبيان الرسول «ليس بضرورى، وأنه غير مأمون منهم العدول عنه»[4] لأنه لا فرق عندهم بين الآحاد وبين مجموع الأمة وجماعتها.

بل ورفضوا أن يكون القرآن هو الحجة، وقالوا: لابد من قيم على القرآن، وأن الإمام على بن أبى طالب هو ذلك القيم، ومن بعده الأوصياء، والأئمة من بنيه، ونسبوا إلى جعفر الصادق ذلك الحوار الذى دار بينه وبين الناس.

«قلت للناس: تعلمون أن رسول الله كان هو الحجة من الله على خلقه؟

قالوا: بلى.

قلت: فحين رضى رسول الله من كان الحجة على خلقه؟

---

١ - [الكافى] جـ ١ ص ١٧٨.

٢ - المصدر السابق. جـ ١ ص ١٧٧.

٣ - المصدر السابق . جـ ١ ص ١٨٠.

٤ - [تلخيص الشافى] جـ ق ١ ص ١٨٦.

فقالوا: القرآن.

فنظرت فى القرآن فإذا هو يخاصم به المرجى، والقدرى.. والزنديق الذى لا يؤمن به حتى يغلب الرجال بخصومته، **فعرفت أن القرآن لا يكون حجة إلا بقيم، فما قال فيه من شىء كان حقا.. فأشهد أن عليا كان قيم القرآن. وكانت طاعته مفترضة، وكان الحجة على الناس بعد رسول الله، وأن ما قال فى القرآن فهو حق..»**[1].

ولذلك كان الإمام، عند الشيعة الإمامية، هو مصدر الدين، بل هو مصدره الوحيد، فقالوا: **«إننا نعتقد أن الأحكام الشرعية الإلهية لا تُستقى إلا من مائهم - [الأئمة] ولا يصح أخذها إلا منهم، ولا تفرغ ذمة المكلف بالرجوع إلى غيرهم، ولا يطمئن بينه وبين الله إلى أنه قد أدى ما عليه من التكاليف المفروضة إلا من طريقهم..»**[2].

وهم فى قولهم: إن الإمام هو القيم على القرآن، قد قدموا الإمام على القرآن، وجعلوه هو الأساس، فاعتبروا الإمام هو **«القائم بالفعل»** بينما القرآن هو **«القائم بالقوة»** وفى ذلك يقول الكرمانى:

«إن مثل الناطق فى كونه أصلا للدين كمثل المبدع الأول فى كونه أصلا للموجودات وعن الناطق، الذى هو أصل عالم الدين من جهة التركيب، وجد الإمام القائم بالفعل، وهو الأساس، وعن الناطق أيضا وجد الإمام القائم بالقوة، وهو الكتاب..»[3].

* ولذلك، قدم الشيعة الإمامية الإمامة على النبوة، والإمام على النبى.. وقالوا:

---

١ - [الكافى] جـ ١ ص ١٦٨، ١٦٩.

٢ - المظفر (محمد رضا) [عقائد الإمامية] ص ٧٠. طبعة دار النعمان - النجف.

٣- الكرمانى (أحمد حميد الدين) [راحة العقل] ص ٣٩. تحقيق: د. محمد كامل حسين، د. محمد مصطفى حلمى. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢م.

إن عليا قد قال: «ولقد أقرت لى جميع الملائكة والروح والرسل بمثل ما اقروا به لمحمد، ولقد حملت مثل حمولته، وهى حمولة الرب[1] يعنى كلفنى الله ربى مثل ما كلف محمدا من أعباء التبليغ والهداية.. التى وردت من الله»[2].

وهم ينسبون رواية هذه الأقوال - التى تؤله الأئمة - إلى الإمام جعفر الصادق. كما ينسبون له قوله:

إن عليا «قد جرى له من الفضل ما جرى لرسول الله.. والمعيب عليه فى شيء من أحكامه كالمعيب على الله ورسوله، والراد عليه فى صغيرة أو كبيرة على حد الشرك بالله .. فهو باب الله الذى لا يؤتى إلا منه، وسبيله الذى من سلك بغيره هلك، وبذلك جرت الأئمة واحدا بعد واحد، جعلهم الله أركان الأرض أن تميد بهم، والحجة البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى.»[3].

* وقالت الشيعة الإمامية:

«إن دفع الإمامة كفر، كما أن دفع النبوة كفر، لأن الجهل بهما على حد واحد.. لأن منطلق الإمامة هو منطلق النبوة، والهدف الذى لأجله وجبت النبوة هو نفس الهدف الذى من أجله تجب الإمامة، وكما أن النبوة لطف من الله كذلك الإمامة، واللحظة الحاسمة التى انبثقت بها النبوة.. وهى يوم الدار - [عند ما جمع النبى عشيرته ودعاهم للإسلام] - هى نفسها اللحظة التى انبثقت بها الإمامة.. واستمرت الدعوة ذات لسانين النبوة والإمامة، فى خط واحد، وامتازت الإمامة على النبوة: أنها استمرت بأداء الرسالة بعد انتهاء دور النبوة.. إن النبوة لطف خاص، والإمامة لطف عام..»[4].

١- [الكافى] جـ ١ص ١٩٦.

٢- المصدر السابق - وهامش يفسر العبارة السابقة» نفس الصفحة.

٣- المصدر السابق، جـ ١ص ٢٩٧.

٤- [تلخيص الشافى] جـ ٤ ص ١٣١، ١٣٢. وانظر كذلك [مجموع من كلام السيد المرتضى] للسيد المرتضى على بن الحسين - مخطوط مصور بدار الكتب المصرية - رقم ١٥٩ عقائد تيمور - اللوحة ٦٣.

* كذلك يقول الشيعة الإمامية بجواز ظهور المعجزات على يد الإمام، كما هو حال الأنبياء، لأن في ذلك دليل تعينهم، كما هو الحال مع الأنبياء، سواء بسواء[1].

* وإذا كان الشيعة الإمامية قد قاسوا عصمة الإمام على عصمة النبي، فإن مذهبهم في علم الإمام قد بلغ في الغلو مرتبة جعلتهم يرون الإمام أكثر علما من النبي،بل ومن كل الأنبياء مجتمعين، بل إن مذهبهم هذا يعني في الواقع والحقيقة أن النبوة، في معناها الجوهري، الذي هو صلة السماء الدائمة بالأرض، لم تختم بموت محمد ﷺ، بل لا تزال- هذه الصلة - قائمة في شخص الإمام.

فالرسول يتلقى علم ما لم يعلم عن السماء بواسطة الوحي الذي يأتيه به ملك، يراه حينا ولا يراه حينا آخر.. والشيعة يرون أن الفارق بين «التحديث» وبين «الوحي» أن الإمام لا يرى الملك وإنما هو يسمع الصوت، وتحدث له السكينة التي تجعله يطمئن إلى أن ما سمعه هو صوت الملك. فكل من الإمام والنبي - عندهم - يأتيه علم السماء بواسطة «روح القدس» التي بها حمل النبي النبوة، والتي تنتقل بعد النبي إلى الإمام.

وهم ينسبون إلى الإمام جعفر الصادق قوله:

«إن الإمام إذا أراد أن يعلم الشيء أعلمه الله ذلك[2] وهو يتلقى المعارف والأحكام الإلهية وجميع المعلومات عن طريق النبي أو الإمام قبله، وإذا استجد شيء لابد أن يعلمه من طريق الإلهام بالقوة القدسية التي أودعها الله تعالى فيه، فإن توجه إلى شيء وشاء أن يعلمه على وجهه الحقيقي لا يخطأ فيه.. وإن قوة الإلهام عند الإمام، التي تسمى بالقوة القدسية، تبلغ الكمال في أعلى درجاته، فيكون في صفاء نفسه القدسية على استعداد لتلقي المعلومات في كل

١- [تلخيص الشافي] جـ١ق ١ ص ١٤١، ١٤٣ - [مجموع من كلام السيد المرتضى] اللوحة ٦٠.

٢- [الكافي] جـ١ ص ٢٥٧.

وقت وفى كل حالة، فمتى توجه إلى شىء من الأشياء وأراد معرفته استطاع علمه بتلك القوة القدسية الإلهاية، بلا توقف ولا ترتيب مقدمات، ولا تلقين بعلم، وتتجلى فى نفسه المعلومات كما تتجلى المرئيات فى المرآه الصافية، لاغطش فيها ولا إيهام.. ويبدو واضحا هذا فى تاريخ الأئمة، لم يتربوا على أحد، ولم يتعلموا على يد معلم، من مبدأ طفولتهم إلى سن الرشد، حتى القراءة والكتابة، ولم يثبت عن أحدهم أنه دخل الكتاتيب أو تتلمذ على يد أستاذ فى شىء من الأشياء، مع مالهم من منزلة علمية لا تجارى وما سئلوا عن شىء إلا أجابوا عليه فى وقته، ولم تمر على ألسنتهم كلمة (لا أدرى) ولا تأجيل الجواب إلى المراجعة أو التأمل ونحو ذلك[1].

أى أن علم الإمام - برأى الشيعة - قد تفوق على علم النبى، الذى كان يسأل فيتوقف حتى يأتيه نبأ السماء فيما لم يعرف له جوابا.

وهذه القوة القدسية التى يراها الشيعة مصدر العلم الإلهى الإلهامى للإمام، هى التى كانت مصدر علم النبوة للأنبياء.. وينسبون فى ذلك - إلى الإمام جعفر الصادق قوله:

«إن الله جعل فى النبى خمسة أرواح:

روح الحياة، فبه دب ودرج.

وروح القوة، فبه نهض وجاهد.

وروح الشهوة، فبه أكل وشرب، وآتى النساء من الحلال.

وروح الإيمان، فبه آمن وعدل.

وروح القدس، فبه حمل النبوة. فإذا قبض النبى انتقل روح القدس فصار إلى

١- [عقائد الإمامية] ص ٦٧، ٦٩.

الإمام، وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يذهو ، والأربعة الأرواح تنام وتغفل وتزهو وتلهو، وروح القدس كان يرى به.. »[1]

بل لقد ذهبوا إلى أن علم الإمام يربو على علم النبي .. وعلى علم الأنبياء جميعا مجتمعين.. ونسبوا إلى الإمام زين العابدين قوله:

« .. إن الله عز وجل جمع لمحمد سنن النبيين من آدم وهلم جرا إلى محمد.. وإن رسول الله صير ذلك كله عند أمير المؤمنين.. » [2] الذي علم ما استجد بعد سنن جميع النبيين!.

ولقد تحدثوا عن أن للإمام القدرة على معرفة الغيب والمحجوب، وذلك بواسطة ما أسموه «اسم الله ﷻ الأعظم».. ويشيرون إلى أن العلم الذي أوتيه «آصف» الذي كان عنده علم من الكتاب أحضر به عرش بلقيس إلى سليمان - عليه السلام - هو ثمرة لحرف واحد من حروف الاسم الأعظم.. بينما عند الإمام اثنان وسبعون حرفا من حروف هذا الاسم الثلاثة والسبعين! وفي ذلك ينسبون إلى الإمام زين العابدين قوله:

«إن اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفا، وإنما كان عند آصف منها حرف واحد، فتكلم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس حتى تناول السرير بيده، ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين. ونحن عندنا من الاسم الأعظم اثنان وسبعون حرفا، وحرف واحد عند الله استأثر به في علم الغيب عنده»[3].

١- [الكافي] جـ ١ ص ٢٧٢.

٢- المصدر السابق. جـ ١ ص ٢٢٢، ٢٢٣.

٣- المصدر السابق. جـ ١ ص ٢٣٠.

هكذا بلغ «الغلو = الخرافى» و «الخرافة - المغالية» بالشيعة الإمامية - ومنهم الإثنى عشرية - فى علم الإمام .. وعصمته قبل الإمامة وبعدها - وفى السلطان الإلهى.

وهنا من الحق أن نسأل:

إذا كان للإمام اثنان وسبعون حرفا من ثلاثة وسبعين هى حروف اسم الله الأعظم.. فلم الحاجة إلى التقية التى جعلها الشيعة دينا يتدينون به؟ ومم يخافون مع هذا العلم.. وهذه القوة.. وهذا السلطان؟! ثم .. ألا يتعارض هذا الذى قالوه عن علم الإمام.. واستمرار الوحى إليه بواسطة روح القدس.. مع ما نسبوه هم للإمام على بن أبى طالب - فى [نهج البلاغة] من أنه عندما انتقل رسول الله - ﷺ إلى الرفيق الأعلى.. وتولى الإمام على أمر غسله وتجهيزه كى يوارى مثواه الأخير .. قد خاطبه - وهو يتولى غسله فقال:

«بأبى أنت وأمى يا رسول الله! لقد انقطع بموتك مالم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء»[1].

إن هذه الكلمات الجامعة للإمام على تنقض كل الذى قالت به الشيعة عن استمرار علاقة السماء بالأئمة ، مما سبقت الإشارة إلى بعضه فيما تقدم من صفحات.

* * *

* ولقد رتبت الشيعة الإمامية على هذا السلطان الدينى المطلق للأئمة - الذين اختارهم الله منذ ما قبل خلق آدم.. وجعلهم الأوصياء المعيذين بالأمر الإلهى.. وزا فى أقدارهم على أقدار الأنبياء والمرسلين .. وجعلهم الحجة الحافظة للدين.. رتب الشيعة على هذا السلطان الدينى المطلق للأئمة سلطانا دنيويا مطلقا.

---

١ - [نهج البلاغة] ص ٢٨٠ طبعة دار الشعب القاهرة.

وإذا كان للأئمة - فى هذه النظرية الإلهية للإمامة - سلطة تكوينية على كل ذرات الكون.. وإذا كان الله قد فوض إليهم الخلق والرزق.. فإن لهم هذه الأرض التى يعيش عليها الناس بكل ما حوت من الأموال والثروات.

وفى ذلك، يروون عن بعض رجالاتهم - أيام جعفر الصادق - قوله «إن **الدنيا كلها للإمام على جهة الملك، وأنه أولى بها من الذين هى فى أيديهم».**

وينسبون إلى رسول الله ﷺ حديثا يروونه عن أبى جعفر محمد بن على زين العابدين - يقول فيه الرسول:

«خلق الله آدم وأقطعه الدنيا قطيعة، فما كان لآدم فلرسول الله، وما كان لرسول الله فهو للأئمة من آل محمد..»

ويروون عن جعفر الصادق قوله:

«إن جبريل كرى - [أى استحدث] خمسة أنهار: الفرات ودجلة، ونيل مصر، ومران، ونهر بلخ، فما سقت أو سقى منها فللإمام، والبحر المطيف بالدنيا للإمام..»[1].

كما ينسبون إليه رده على من قال: إن للأئمة خمس الأموال.. إذ قال الإمام جعفر:

«أو مالنا من الأرض وما أخرج الله منها إلا الخمس؟!.. إن الأرض كلها لنا، فما أخرج الله منها من شىء فهو لنا.. وكل ما فى أيدى شيعتنا من الأرض فهم فيه محللون حتى يقوم قائمنا فيجيبهم طسق [وظيفة من الخراج] ما كان فى أيديهم، وأما ما كان فى أيدى غيرهم فإن كسبهم من الأرض حرام عليهم حتى يقوم قائمنا فيأخذ الأرض من أيديهم ويخرجهم صغرة..»[2].

١- [الكافى] جـ ص ٤٠٩.

٢- المصدر السابق جـ ١ ص ٤٠٨ والصغرة -بفتح الصاد وسكون الفاء- من معانيها: المرة، والجوعة: أى أخرجهم مرة واحدة، أو جوعى.

فليس للناس - من الأرض وما فيها - إلا ما أكلوا .. وما زاد على ذلك فللإمام.. وهم ينسبون فى تقرير ذلك كلاما للإمامة على، رووه عن الإمام زين العابدين يقول فيه:

«إن الأرض كلها لنا، فمن أحيا أرضا من المسلمين فليعمرها، وليؤد خراجها إلى الإمام من أهل بيتى، وله ما أكل منها.. حتى يظهر القائم من أهل بيتى بالسيف، فيحويها ويمنعها، ويخرجهم منها.. إلا ما كان فى أيدى شيعتنا فإنه يقاطعهم على ما فى أيديهم ويترك الأرض فى أيديهم»[1].

فنحن أمام نظرية متكاملة فى الإلهية الإمامة.. وتأليه الأئمة فالله هو الذى اختارهم وعينهم وأوصى بهم .. وهو الذى فوض إليهم سلطانه - بما فى ذلك الخلق والرزق - كما جعلهم القيمين على القرآن، بل والمقدمين عليه.. وجعل سلطانهم أدوم من سلطان النبوة والرسالة.. كما جعل لهم الأرض كلها.

وإذا كان الله - سبحانه وتعالى - قد قال - فى قرآنه الكريم : [والأرض وضعها للأنام] الرحمن : فإن الشيعة الإمامية قد قالوا: والأرض وضعها للإمام!

* ولقد جعلت الشيعة الإمامية - بمن فى ذلك الاثنى عشرية - هذه النظرية فى «الإمامة الإلهية» وتأليه الأئمة عقيدة دينية، من أمهات الاعتقاد الدينى **«لا يتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها»**[2]. بل جعلوها أدخل فى أصول الدين وأوكد فى أركانه من معرفة الله، وعد له ونبوة أنبيائه، وذلك عندما جعلوا «قواعد الإيمان - بما فيه الإسلام خمسة:

١ - المعرفة: بما فيها الصفات الثبوتية والسلبية.

٢ - التصديق: بالعدل والحكمة.

١- المصدر السابق. جـ ١ ص ٤٠٧ ، ٤٠٨.

٢- [عقائد الإمامية] ص ٦٥.

٣ – التصديق: بنبوة محمد، وجميع ما جاء به.

٤ – التصديق: بإمامة الأئمة الإثنى عشر، وما جاءوا به.

٥ – التصديق: بالمعاد الجسمانى.

ثم جعلوا القواعد «الثلاثة الأولى خاصة بالإسلام، والأخيرين من امتياز الإيمان»[١] هكذا بلغ الغلو بالشيعة الإمامية إلى هذا الحد. حد إلهية الإمامة، وتأليه الأئمة. على هذا النحو الذى أشرنا إلى معالمه من مصادرهم الأصلية والمعتمدة – منذ نشأتهم وحتى هذه اللحظات.

* * *

وفى هذا الكتاب، الذى نقدم بين يديه، والذى كتبه العالم الشيعى الحجة الدكتور أحمد الكاتب.. اعتراف صريح بصدق هذا الذى عرضناه.

ففى المبحث الثانى – من الفصل الأول – فى الباب الأول – حول [عقيدة الإمامة الإلهية] يتحدث الدكتور أحمد الكاتب عن أن هذه النظرية الشيعية فى الإمامة قد طرأت على الفكر الإسلامى عند الشيعة – ولم تكن موجودة فى القرون الإسلامية الأولى فيقول:

«وفى تلك الأيام الأولى لنشوء المذاهب، لم يكن موضوع الإمامة أو الخلافة يعتبر أصلا من أصول الدين، لأن القرآن الكريم لم يتحدث عنه بالتفصيل، ولكن مبادرة فريق من الشيعة، عُرف بالإمامية أو الرافضة، إلى القول – فى القرن الثانى الهجرى – بموضوع النص من النبى على الأمام علىّ بالخلافة، وانحصار الحق بها فى البيت العلوى الحسينى، والاستدلال عليها بتأويلات معينة لبعض آيات القرآن الكريم أو الاستعانة على ذلك بأحاديث عامة أو

١ – [تلخيص الشافى] ج ١ ق ١ ص ٩١ – هامش – وكذلك ص ٥٩، ٦٠ انظر – كذلك أبو حنيفة المغربى – النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد التميمى [دعائم الإسلام] ج ١ ص ٢، ١٣ تحقيق: آصف بن على أصغر فيضى. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.

ضعيفة.. كل ذلك رفع موضوع الإمامة إلى مصاف العقيدة وجعل الموضوع جزءاً ملحقا بالنبوة وامتدادا لها.. وبعد رفع الشيعة موضوع الإمامة إلى مصاف العقيدة، كان لابد أن ينعكس ذلك على الموقف من غير المؤمنين بها تكفيرا وتفسيقا وتضليلا..»

هكذا شخص الدكتور أحمد الكاتب - فى شجاعة وموضوعية وإخلاص - نشأة المشكلة، التى قسمت الأمة الإسلامية .. عندما رفع الشيعة مقالتهم فى الإمامة من الفروع والفقهيات إلى «مصاف العقيدة وجعلوا موضوعها ملحقا بالنبوة وامتدادا لها» فغدت إمامة إلهية وليست خلافة سياسة وأصبح الأئمة - فى هذه الإمامة الإلهية - مفوضيين عن الله فى القيام بكل سلطان الله - بما فى ذلك الخلق والرزق - بدلا من أن يكونوا مستخلفين عن الأمة، المستخلفة لله - كما هو الحال فى فكر أهل السنة والجماعة.

ومن ثم - وبعد أن غدت هذه الإمامة هى العقيدة الأم من عقائد الدين - أصبح الإيمان وقفا على المؤمنين بها. والكفر حكما على المخالفين فيها!.

لقد انعكس موقف الشيعة الإمامية تجاه أهل السنة والجماعة بسبب هذا التحول المفصلى الذى حدث وطرأ فى القرن الهجرى الثانى - فأصبح «تكفيراً وتفسيقا وتضليلا» بسبب هذه النظرية الشيعية فى «الإمامة الإلهية».

أى أن موطن الخلل إنما جاء من رفع الشيعة موضوع الإمامة من «الفروع والسياسات والفقهيات» إلى مصاف «العقيدة الدينية» الأمر الذى رفع معايير الخلاف حولها - بين الشيعة والسنة - من «الخطأ والصواب» فى الاجتهادات إلى «التكفير والتفسيق والتضليل لهؤلاء المخالفين»!

* ويعترف الدكتور أحمد الكاتب - فى حديثه عن [الغلو والغلاة] عند قدماء الشيعة - والذين اشتهر منهم:

١ - عبد الله بن سبأ [٤٠ هـ ٦٦٠م] - فى حياة الإمام على بن أبى طالب [٢٣ ق هـ - ٤٠ هـ ٦٠٠ - ٦٦١م]

٢ - وبيان بن سمعان الهندى - فى زمن الإمام على بن الحسين - زين العابدين [٣٨ - ٩٤ هـ ٦٥٨ - ٧١٢م].

٣ - والمغيرة بن سعيد فى زمن الإمام الباقر [٥٧ - ١١٤ هـ ٦٧٦ - ٧٣٢م].

٤ - وحمزة بن عمارة البربرى.

٥ - والحارث الشامى.

٦ - وعبد الله بن الحارث.

٧ - وأبو الخطاب محمد بن أبى زينب الأسدى - الذى قال: إن جعفر الصادق [٨٠ - ١٤٨ هـ ٦٩٩ - ٧٦٥م] هو إله زمانه.

يعترف الدكتور أحمد الكاتب بأن **«بعضا من أفكار هؤلاء الشيعة الغلاة مثل استمرار نزول الوحى بشكل أو بآخر، على الأئمة، ودعوى علمهم بالغيب، وإتيانهم بالمعاجز [المعجزات] كعلامة من علامات الإمامة الإلهية، ومهمة من مهماتها قد تسرب إلى الفكر الإمامى»**.

* وإذا كانت «المدرسة الأصولية الاجتهادية» الشيعية قد راجعت الكثير من المرويات التى قبلتها وروجتها «المدرسة الإخبارية الشيعية» فإن هذه المراجعة «التى ترعرعت فى النجف وكربلاء فى القرن التاسع عشر» لم تمتد - باعتراف الدكتور أحمد الكاتب - إلى حقل اعتقاد الغلاة والإخباريين فى الإمامة الإلهية فى تأليه الأئمة والارتفاع بهم فوق مرتب الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين.

* نعم .. لقد راجعت المدرسة الأصولية الاجتهادية بعض القضايا التى تسهم مراجعتها فى التقريب بين الشيعة والسنة.. وفى مقدمة هذه القضايا دعاوى المدرسة الإخبارية الشيعية وقوع تحريف حدث للقران الكريم».

فكتاب [الأصول من الكافى] - للكلينى - والذى يناظر صحيح البخارى عند أهل السنة والجماعة تبلغ روايات الأحاديث الشيعية التى تزعم تحريف القرآن الكريم فيه درجة التواتر «لكن المدرسة الأصولية الاجتهادية الشيعية بدأت مراجعة درجات أحاديث الكافى.. فخلصت إلى أن فيه الضعيف والمرسل وما لا يوافق القرآن.. وإن أحاديثه البالغة ١٦١٩٩ حديثا لم يصح منها سوى ٥٠٧٢ - أى أقل من الثلث.. والحسن فى أحاديث الكافى ١٤٤ حديثا والموثق ١١٢٨ حديثا والقوى ٣٠٢ حديثا.. والضعيف ٩٤٨٠ حديثا أى أن ثلثا أحاديث [الكافى] هى أحاديث ضعيفة»(١).

وبهذه المراجعة - من المدرسة الأصولية الاجتهادية - لأهم مصادر الحديث الشيعية التى مثلت ديوان الخلاف بين الشيعة والسنة، فتحت المدرسة الأصولية الاجتهادية بابا هاما من أبواب التقريب بين الشيعة والسنة - لم يستثمر فتحه الاستثمار الأمثل حتى الآن: وإن كان قد أثمر مراجعة الموقف الشيعى الإخبارى فى دعاوى تحريف القرآن الكريم.

* * *

* لقد سبق وانطلقت المدرسة الإخبارية الشيعية من مرويات [الكافى] حول دعاوى تحريف القران الكريم، فطفحت مجلدات علمائها ومراجعها بهذه الدعاوى .. وفى ذلك:

١ - قال الشيخ المفيد محمد بن النعمان [٣٣٨ - ٤١٣ هـ ٩٥٠ - ١٠٢٢م]:

١- الشيخ رسول جعفريان [أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة] ص ٧٩، ٨٠ تقديم د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

«إن الخبر قد صح عن أئمتنا عليهم السلام أنهم قد أمروا بقراءة الدفتين [أي القرآن الحالى] وأن لا نتعداه إلى زيادة فيه ولا إلى نقصان منه إلى أن يقوم القائم عليه السلام - [الإمام الغائب] فيقرىء الناس على ما أنزل الله تعالى وجمعه أمير المؤمنين عليه السلام»[1].

«وإن الأخبار قد جاءت مستفيضة عن أئمة الهدى من آل محمد باختلاف القرآن، وما أحدثه بعض الظالمين فيه من الزيادة والنقصان»[2].

٢ - وقال الفيض الكاشانى [٤٨٤ هـ ١٠٩١م]:

«والمستفاد من جميع هذه الأخبار وغيرها من الروايات ، من طريق أهل البيت عليهم السلام، أن القرآن الذى بين أظهرنا ليس بتمامه كما أنزل على محمد ﷺ وآله -بل منه ما هو خلاف ما أنزل الله، ومنه ما هو مغير محرف، وأنه قد حذف عنه أشياء كثيرة منها: اسم على عليه السلام فى كثير من المواضع، ومنها: لفظة آل محمد غير مرة، ومنها: أسماء المنافقين فى مواضعها، وغير ذلك، وأنه ليس أيضا على الترتيب المرضى عند الله وعند رسوله ﷺ وآله..»[3].

٣ - وقال نعمة الله الجزائرى [١٠٥٠ - ١١١٢ هـ ١٦٤٠ - ١٧٠١م]:

«والأخبار المستفيضة، بل المتواترة دالة بصريحها على وقوع التحريف فى القران كلا ما وإعرابا»[4].

١- الشيخ المفيد [المسائل السروية] ص ٨٨، ٨٩.

٢- الشيخ المفيد [أوائل المقالات] ص ٥٤. طبعة تبريز - إيران.

٣- الفيض الكاشاني [تفسير الصافى] المقدمة السادسة جـ ١ ص ٤٤ طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م.

٤- نعمة الله الجزائري [الأنوار النعمانية] جـ ٢ ص ٣٥٧ - طبعة تبريز - إيران.

٤ - وقال المجلسى - محمد باقر [١٠٢٧ - ١١١١ هـ ٤١٨ - ٥٠٤م]:

«لقد روى عن جعفر الصادق - عليه السلام - أنه قال: «إن القرآن الذى جاء به جبرئيل - عليه السلام - إلى محمد - ﷺ وآله - سبعة عشر ألف آية» .. «ولا يخفى أن هذا الخبر وكثيراً من الأخبار الصحيحة صريحة فى نقص القرآن وتغييره وعندى أن الأخبار فى هذا الباب متواترة معنى...»[١].

٥ - وقال أبو الحسن العاملى المولى - محمد طاهر - الفتونى:

«اعلم أن الذى يظهر من ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكلينى - طاب ثراه - أنه كان يعتقد التحريف والنقصان فى القرآن، لأنه روى روايات كثيرة فى هذا المعنى فى كتابه [الكافى] الذى صرح فى أوله بأنه كان يثق فيما رواه فيه، ولم يتعرض لقدح فيها، ولا ذكر معارض لها»[٢].

٦ - وقال المحدث الشيعى يوسف البحرانى:

«ولا يخفى فى هذه الأخبار من الدلالة الصريحة والمقالة الفصيحة على ما اخترناه ووضوح ما قلناه [من حدوث نقص وتحريف فى القرآن] ولو تطرق الطعن إلى هذه الأخبار ، على كثرتها وانتشارها، لأمكن الطعن فى أخبار الشيعة كلها كما لا يخفى، إذ الأصول واحدة، وكذا الطرق والرواة والمشايخ والنقلة. ولعمرى إن القول بعدم التغيير والتبديل لا يخرج من حسن الظن بأئمة الجور وأنهم لم يخونوا فى الأمانة الكبرى ، مع ظهور خيانتهم فى الأمانة الأخرى التى هى أشد ضررا على الدين»[٣].

* * *

١- المجلسى [مرآة العقول] جـ ١٢ ص ٥٢٥، ٥٢٦ طبعة دار الكتب الإسلامية - طهران.

٢- الفتونى [مرآة الأنوار] ص ٤٩ طبعة طهران سنة ١٣٧٤ هـ.

٣- يوسف البحرانى [الدرر النجفية] ص ٢٩٨ طبعة مؤسسة آل البيت.

هكذا .. وبعد أن طفحت كتب المدرسة الإخبارية بهذه الدعاوى والروايات عن تحريف القران.. راجعت المدرسة الأصولية الاجتهادية هذه الدعاوى ودعت إلى تجاوزها.

ففي كتاب صدر - بطهران سنة ١٤٠٦ هـ سنة ١٩٨٥م - للشيخ جعفر رسوليان عنوانه [أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة] نجد المراجعة الشيعية لدعاوى المدرسة الإخبارية تحريف القرآن الكريم واضحة وحاسمة ففيه:

١ - تفنيد وإنكار لوجود ما سمي «مصحف علي» والدعوى أنه - كرم الله وجهه - قد جمع مصحفه هذا في ثلاثة أيام.

٢ - وفي هذا الكتاب نص على أن الإمام علي قد أيد جمع عثمان بن عفان [٤٧ ق هـ - ٣٥ هـ ٥٧٧ - ٦٥٦م] الأمة على المصحف الموحد، وقال: «لو وليت لفعلت مثل الذي فعل» وأنه قد أحرق مصحفه، معلنا اجتماع الأمة على المصحف الإمام.

٣ - وفيه إنكار لدعاوى الإخبار بين وجود ما سمي «بمصحف فاطمة» فلا وجود لهذا المصحف المزعوم.. والروايات إنما كانت تتحدث في الغالب - عن «وصية» أو «علم» «ليس فيه قرآن».

٤ - وفي هذا الكتاب نصوص لعدد من أعلام علماء المدرسة الأصولية الاجتهادية تؤكد على الحفظ الإلهي للقرآن الكريم من التحريف.

فبعد الأحاديث التي جمعها الإخباريون حول دعاوى تحريف القرآن - والتي بلغت في [الكافي] درجة التواتر .. وبعد أن كتب ميرزا حسين النوري [١٣٢٠هـ] - الذي كان يوصف في أدبيات الإخباريين - «بالشيخ الأجل، ثقة الإسلام، خريت صناعة الحديث، وجامع أخبار الأئمة والعالم المتبحر، والمحدث الناقد البصير».. بعد أن كتب كتابه [فصل الخطاب في تحريف كتاب رب

الأرباب] جاء علماء المدرسة الأصولية الاجتهادية لينقدوا وينقضوا دعوى التحريف هذه.

* فالعلامة الطباطبائى يقول عن القرآن الكريم:

«إنه ذكر حى خالد مصون من أن يموت وينسى من أصله ، مصون من الزيادة عليه بما يبطل كونه ذكرا ، مصون من النقص كذلك، مصون من التغيير فى صورته وسياقه بحيث تتغير به صفة كونه ذكراً الله مبينا لحقائق معارفه. فالاية {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} تدل على كون كتاب الله محفوظا بجميع أقسامه.. فالقرآن محفوظ بعد إنزاله إلى الأبد»

* والسيد الخوئى [١٣١٧ - ١٤١٢ هـ ١٨٩٩ - ١٩٩٢م] يقول فى تفسير نفس الآية:

«إنها تدل على حفظ القرآن من التحريف ، وأن الأيدى الجائرة لن تتمكن من التلاعب فيه»

* والفيض الكاشانى [١٠٩١هـ] يقول:

«[إنا له لحافظون] من التحريف والتغيير والزيادة والنقصان».

* والشيخ أبو على الطبرسى يقول فى تفسير نفس الآية:

«[وإنا له لحافظون] عن الزيادة والنقصان والتحريف والتغير».

ويروى عن الحسن : «معناه : نتكفل بحفظه إلى آخر الدهر على ما هو عليه، فتنقله الأمة وتحفظه عصرا بعد عصر إلى يوم القيامة، لقيام الحجة به على الجماعة من كل من لزمته دعوة النبى ﷺ ».

* والسيد المرتضى على بن الحسين الموسوى [٤٣٦هـ] وهو طليعة المدرسة الأصولية الشيعية يقول :

«إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار، والوقائع العظام، والكتب المشهورة ، وأشعار العرب بالمسطورة ، فإن العناية اشتدت، والدواعى توفرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حد لم يبلغه فيما ذكرناه. لقد كان القرآن على عهد سول الله ﷺ مجموعا مؤلفا على ما هو عليه فى ذلك الزمان حتى عيّن النبى على جماعة من الصحابة حفظهم له، وكان يُعرض على النبى عدة ختمات، وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كان مجموعا مرتبا غير مبتور ولا مبثوث ومن خالف فى ذلك لا يعتد بخلافه ، لأن المخالفين نقلوا أخبارا ضعيفة ظنوا صحتها، ولا يرجع بمثلها على المعلوم المقطوع بصحته»[1].

هكذا راجعت المدرسة الأصولية الاجتهادية الشيعية تراث المدرسة الاخبارية حول دعاوى تحريف القرآن الكريم.. كما فتحت الباب لنقد المرويات الحديثية التى جمعتها المدرسة الإخبارية.. ومنها كتاب الكلينى [الأصول من الكافى].

* * *

لكن هذه المراجعة – مع الأسف والاستغراب – لم تقترب من تراث المدرسة الإخبارية فى «نظرية الإمامة الإلهية» و «تأليه الأئمة» – وهى جوهر الخلاف بين الشيعة والسنة .. فبقى الغلو الشيعى القديم فى هذه القضية قائماً فى الفضاء الشيعى الحديث والمعاصر!

بل إن مراجعة الأصوليين المجتهدين لدعاوى الإخبار بين حول تحريف القرآن – وهى الدعاوى التى نشأت لدعم نظرية الإمامة الإلهية وتأليه الأئمة – لم تظهر لها أية ثمرات فى فكر الأصوليين حول هذه النظرية فى الإمامة الإلهية فالأصوليون نفوا تحريف «التنزيل» واستمروا فى استخدام «التأويل» للحفاظ على الغلو الشيعى القديم فى فكرهم الحديث والمعاصر حول نظرية الإمامة.. فظل هذا الغلو الشيعى «ثابتا» حتى هذه اللحظات!

١- المرجع السابق ص ٩١ – ٩٧ – والكتاب يورد نصوصا وأسماء لقرابة الثلاثين من علماء الشيعة ينكرون حدوث أي تحريف في القرآن الكريم.

ظاهرة الغلو الحديثة

تحت هذا العنوان، يقول الدكتور أحمد الكاتب:

«لقد شهد القرن التاسع عظر ظهور بعض من ينتمي إلى المدرسة الأصولية يميل إلى المنهج الإخباري الحشوي فيما يتعلق بنظرته إلى أئمة أهل البيت.. حيث أخذ بعض رجال الدين، يتلقف الروايات الضعيفة دون تمحيص أو نقد أو تأكد من مصادرها وأسانيدها، أو دراسة رجالها، ولذلك وقع في فتنة الغلو، وأخذ ينسب صفات الربوبية إلى أئمة أهل البيت، أو يدعي لهم مقامات عليا أو أدواراً فوق مستوى البشر، ومهمات من أعمال الله تعالى كإدارة الكون أو الخلق والرزق وما إلى ذلك، تحت غطاء نظرية (الولاية التكوينية) التي كان يقول بها المفوضة من قبل»

هكذا شهد الدكتور أحمد الكاتب - وهو العالم الخبير بالفكر الشيعي «والمخلص للحقيقة الفكرية والعلمية - بأن تيار الغلو في الفكر الشيعي، الذي ساد في المدرسة الإخبارية القديمة، والذي أله الأئمة، قد عاد وساد في الفكرِ الشيعي الحديث والمعاصر».

ثم أخذ يضرب الأمثال على المراجع الشيعية الذين ساد فكرهم، ومثل غلوهم في نظرية الإمامة «ظاهرة الغلو الجديدة» هذه فقال:

«ويمكننا أن نأخذ أمثلة على ظاهرة الغلو الجديدة بعدد من المشايخ من أمثال:

* **الشيخ محمد الوحيد الخراساني** [١٣٤٠ هـ ١٩٢٢م] مدرس علم أصول في قم، **والذي يقول بصراحة بتفويض الله تعالى للأئمة الخلق والرزق وما إلى**

ذلك من أعمال الله تعالى، وأن الأئمة هم وسائط فعاليات مخلوقاته، ويدعى أن هذا التفويض صحيح، لا ينافى الإيمان بالله تعالى.

ومما يقول الخراسانى:

«إن الأئمة هم فاعلون ما به الوجود ، وإن الله منه الوجود، وإن إمام العصر صار عبدا، وعندما صار عبدا صار ربا، فالعبودية جوهرة كنهها الربوبية، فمن ملك هذه الجوهرة تحققت ربوبيته بالله تعالى لا بالاستقلال بالنسبة إلى الأشياء الأخرى»[1].

هكذا نجد أنفسنا - أمام هذا النص الذى أورده الدكتور أحمد الكاتب - موثقا - إزاء تأليه الأئمة ، فى المدرسة الشيعية الحديثة والمعاصرة - يصل إلى حد «تغبيش» التوحيد الإسلامى، فإمام العصر قد صار ربا، وربوبيته قد تحققت بالله، لا بالاستقلال عن الله - فهو شريك - والأئمة هم الفاعلون لما به الوجود!. والمفوض إليهم أمر الخلق والرزق بالنسبة للعباد!.

* * *

ثم يورد الدكتور أحمد الكاتب نموذجا ثابتا من نماذج ظاهرة الغلو الجديدة فى الفكر الشيعى الحديث والمعاصر ، وهو:

* السيد محمد الشيرازى [١٣٣٨هـ - ١٩٢٠م]: الذى يعتقد **«بتفويض الله للنبى وللأئمة من أهل البيت الولاية التشريعية والولاية التكوينية، وذلك بمعنى أن زمام العالم بأيديهم، فلهم التصرف فيه إيجادا وإعداما، كما أن زمام الإمامة بيد عزرائيل وأنهم الوسائط فى خلق العالم والعلة الغائية له، كما أنهم سبب لطف الله تعالى وإفاضته على العالم، واستمرار قيام العالم بهم»**[2].

١- محاضرة بقم - فى ١٣ شعبان سنة ١٣١١ هـ بعنوان «متقطفات ولائية» ص ٣٩.

٢- [من فقه الزهراء] جـ ١ ص ١٠، ١١، ١٧ نقلا عن كتاب عوالم العلوم ومستدركاتها - مجلد فاطمة جـ ١ - .

أما النموذج الثالث - الذى يورده الدكتور أحمد الكاتب - على عودة واستمرار - الغلو وتأليه الأئمة، والادعاء بأن لهم فى هذا الكون ولاية تكوينية على كل ذرات هذا الكون ، فهو:

* **الإمام آية الله العظمى الخمينى** [١٣٢٠ - ١٤٠٩ هـ ١٩٠٢ - ١٩٨٩م]

- الذى يورد الدكتور أحمد الكاتب نصوص الغلو الشيعى - موثقة - من مكتبه فيقول:

«لقد نشر مؤخرا كتاب نسب إلى الإمام الخمينى تحت عنوان [مصباح الهداية إلى الولاية والخلافة] ورد فيه ما يلى:

«إن للأئمة مراتب متعددة مثل:

مرتبة (إن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا ملك مقرب أو نبى مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان.

ومرتبة: (إن لنا حالات مع الله نكون فيها هو نحن ونحن هو إلا أنه هو هو ونحن نحن) ، والتى أشارت إليها أدعية الناحية المقدسة فى رجب: (ولا فرق بينك وبينها إلا أنهم عبادك) وكما ورد فى الزيارة الجامعة الشريفة: (حساب الخلق عليكم وإيابهم إليكم) أو قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه (أنا الذى يدخل أهل الجنة لجناتهم) فهو قسيم النار والجنة كما ورد متواترا..»

«ومما علمناك من البيان وآتيناك من التبيان يمكن لك فهم قول مولى الموحدين وقدوة العارفين أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين:

كنت مع الأنبياء باطنا مع رسول الله ظاهرا ، فإنه صلوات الله عليه صاحب الولاية المطلقة الكلية، والولاية باطن الخلافة، والولاية المطلقة الكلية باطن الخلافة الكذائية، فهو - عليه السلام - بمقام ولايته الكلية قائم على كل نفس

بما كسبت، ومع كل الأشياء معية قيومية ظلية إلهية ظل المعية القيومية الحقة الإلهية»[1].

ثم يواصل الدكتور أحمد الكاتب حديثه قائلا:

«وهذا ما ينسجم مع ما ورد في كتاب [الحكومة الإسلامية] - للخميني - الذي يقول فيه: **«إن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم ﷺ وآله وسلم والأئمة (عليهم السلام) كانوا قبل هذا العالم أنوارا، فجعلهم الله بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى مالا يعلمه إلا الله. وقد قال جبرائيل كما ورد في رواية المعراج: لو دنوت أنملة لاحترقت.**

وقد ورد عنهم - عليهم السلام - : إن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل»[2].

وقول الخميني:

«إن حقيقة التوحيد لا تكون تامة من غير ولا يتهم عليهم السلام.. وإن ثبوت الولاية والحاكمية للإمام لا تعني تجرده من منزلته التي هي له عند الله، ولا تجعله مثل من عداه من الحكام، فإن للإمام مقاما محمودا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون»[3].

«وإن هيولى مادة عالم الإمكان مسخرة تحت يدي الولي يقلبها كيف يشاء»[4].

١- الخميني [مصباح الهداية إلى الولاية والخلافة] ص ٨٤.
٢- الخميني [الحكومة الإسلامية] ص ٥٢، ٥٣.
٣- المصدر السابق. ص ٢٥.
٤- [مصباح الهداية إلى الولاية والخلافة] ص ٥٣.

كما يقول الخمينى فى [كتاب الأربعين حديثا:

«إن الأحاديث المأثورة فى طينة أبدانهم [الأئمة] - وخلق أرواحهم ونفوسهم، وفيما منحوا من الاسم الأعظم والعلوم الغيبية الإلهية من علوم الأنبياء والملائكة ومما هو أعظم مما لا يخطر على بال أحد، وهكذا الأخبار المنقولة فى فضائلهم فى مختلف الأبواب من الكتب والمعتبرة وخاصة كتاب أصول الكافى، إن مثل هذه الأخبار الكثيرة بقدر تبعث على تحير العقول، ولم يقف أحد على حقائقهم وأسرارهم عليهم السلام إلا أنفسهم»[1].

* * *

إما النموذج الرابع فى مدرسة «الغلو الشيعى» الجديدة والذى أورده الدكتور أحمد الكاتب، فهو:

* الشيخ مرتضى المطهرى: الذى يقول فى كتابه [الإمامة]:

«الأئمة هم أشخاص متخصصون فى الإسلام بيد أن تخصصهم ومعرفتهم فى الإسلام لم تكن انطلاقا من عقلهم واعتمادا على فكرهم، لأن معرفة مثل هذه واختصاصا من هذا القبيل يداخله الخطأ بالضرورة بل إن الأئمة أخذوا علوم الإسلام من النبى ﷺ وآله بطريق غيبى نجهله».

لقد تحولت المعرفة من النبى ﷺ وآله إلى على عليه السلام ومنه بلغت الأئمة من بعده، وفى جميع أدوار الأئمة كان هناك علم اسلامى معصوم لا يخطىء يتحول من إمام إلى الذى يليه»[2].

١- الخمينى [الأربعون حديثا] ص ٤٨٩ - الحديث رقم ٣١ - طبعة مؤسسة دار الكتاب الإسلامى - تعريب محمد الغروى.

٢- المطهرى [الإمامة] ص ٤٧

«وإن للإمامة درجة ومرتبة ثالثة (بالإضافة إلى القيادة السياسية والعلمية) هى ذروة مفهوم الإمامة. وكتب الشيعة مليئة بهذا المفهوم للإمامة، الذى يعدو وجها مشتركا بين التشيع والتصوف.

إن للولى الكامل، الذى ينطوى على (صفات) الإنسانية بشكل تام وكامل، ومقامات بعيدة كل البعد عن أذهاننا، ومن بين المقامات التى تذكر له: تسلطه على الضمائر ، أى القلوب، انطلاقا من كونه روحا كلية بجميع الأرواح»[1].

«إن مسألة الولاية تطرح عادة فى الاعتقاد الشيعى بهذا المعنى نفسه، ولكن على نحو مكثف جدا، فهى تطرح بمعنى أن يكون الولى حجة الزمان، بحيث لا يكون ثمة زمان خالى من الحجة أبدا.. ولولا الحجة لساخت الأرض بأهلها.

إننا نعتقد أن للإمام مثل هذه الروح الكلية ونحن نقول فى الزيارة التى نقرأها جميعا باستمرار، وهى جزء من أصول التشيع «أشهد أنك تشهد مقامى، وتسمع كلامى وترد سلامى»

نحن نخاطبه بهذا الكلام وهو ميت، ولا فرق بالنسبة لنا فى تحليه بهذا المقام - بين حياته ومماته»[2].

«إننا حين نطرح الإمامة بمثل هذا التصور الساذج ونختزلها فى الحكم وحده بحيث نقول إن الإمامة تساوى الحكومة وحسب، فعندئذ نجد أن نظرية أهل السنة وما يذهبون إليه فى المسألة تتحلى بجاذبية أكبر من نظرية الشيعة وما يعتقدون به.. إن الحكومة من الفروع، وهى لا تعدو أن تكون شأننا صغيرا جدا من شئون الإمامة»[3] .. «وإن الإمامة عند الشيعة مفهوم يناظر النبوة [4] إن

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٢.
(٢) المصدر السابق . ص ٥٢.
(٣) المصدر السابق. ص ٥٢، ٦٩، ٧٠.
(٤) المصدر السابق . ص ١٨٦.

أهل السنة لم يتعدوا فى الإمامة أكثر من حد الحكومة، أما الإمامة عند الشيعة فهى تأتى تالى تلو النبوة، بل هى أرفع من بعض درجات النبوة [1] إنها ظاهرة ومفهوم بناظر النبوة فى أعلى درجاتها.. إنها أمر شبيه بنبوة الأنبياء العظام»[2].

* * *

ويسوق الدكتور أحمد الكاتب نموذجا سادسا من نماذج مراجع هذا الغلو الشيعى الحديث والمعاصر .. نموذج:

* السيد محمد تقى المدرسى: الذى يقول:

«إن الإنسان الذى يعتقد بالوحى لابد أن يؤمن أيضا بامتداد هذا الوحى المتمثل فى الأئمة عليهم السلام، وأن هذا الامتداد يتجسد بل يرتفع وينمو حتى يصل إلى قمته، وإلى ذروة امتداد الرسالة المتمثلة فى الإمام الحجة المنتظر عجل الله تعالى فرجه»[3].

* * *

هكذا عرض الدكتور أحمد الكاتب نصوص مراجع المدرسة الشيعية الحديثة والمعاصرة، «الغلاة الجدد» بتعبيره.. أولئك الذين بعثوا فى العصر الحديث - غلو الشيعة الإخباريين القدماء.

فألهوا الأئمة، وأشركوهم مع الله فى إيجاد هذا الوجود. وجعلوا خلقهم سابقا على وجود هذا العالم.. وجعلوا لهم فى هذا العالم ولاية تكوينية على جميع ذرات الوجود.

١- المصدر السابق. ص ١٨٧.

٢- المصدر السابق . ص ٢١٣.

٣- السيد محمد تقى المدرسى (الإمام المهدي قدوة الصديقين) ص ٩.

فهم الذين فوض الله إليهم إدارة الكون.. ولهم فيه الخلق والرزق. فإمام العصر هو رب العصر.. وزمام العالم بيد الأئمة، إيجادا وإعداما.. وحساب الخلق عليهم، وإيابهم إليهم والإمام هو القائم على كل نفس بما كسبت.. وكل مادة هذا الوجود تحت يدى الإمام نقلها كيف يشاء، وهم المتسلطون على الضمائر والقلوب.. ولولاهم لساخت الأرض بأهلها.

لقد رفعت الشيعة قديما وحديثا - مقام أئمتهم على مقامات الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين، وقالوا بحياتهم بعد مماتهم.. وببلوغ الوحى الإلهى إليهم قمته.

لقد آلهوا الأئمة عندما أشركوهم مع الله فى إيجاد هذا العالم وفى إدارة هذا الوجود.

* * *

وهنا نسأل:

- إذا كان الأمر كذلك وإذا كان هذا هو جوهر الخلاف بين الشيعة والسنة وإذا كانت هذه هى درجة التعقيد والخطورة فى هذا الخلاف - كما عرضه الدكتور أحمد الكاتب.

فهل يجوز مع هذا التهوين من خطر هذا الخلاف وعمقه وتعقّده؟! وأن نقول - كما قال الدكتور أحمد الكاتب:

«إن هذا الخلاف بين الشيعة والسنة - بالدرجة الأولى - خلاف سياسى تجاوزه الزمن، ولم تبق منه سوى بعض الرواسب والمخلفات البسيطة التى لا تشكل مادة جدية للخلاف.. فهو لا يدور حول القواعد الثابتة، وربما يتعلق بالقضايا الاجتهادية القائمة على أساس الأدلة الظنية، إنها خلافات «اسميه» وهمية تاريخية، وليست جوهرية ولا حيوية معاصرة».

إننا مع الدكتور أحمد الكاتب عندما يقول:

«لا يجوز دفن الرؤوس فى الرمال»

لكننا نسأله:

- من الذى يدفن الرؤوس فى الرمال؟!

لقد عرض الرجل - بأمانة العالم الناقد للغلو الشيعى فى الإمامة والأئمة - معالم هذا الغلو السائد الآن فى الفضاء الشيعى الاثنى عشرى، على النحو الذى سقناه من خلال النصوص التى نقلها ووثقها فوضعنا جميعا - سنة وشيعة أمام «المهمة الصعبة» وإن لم تكن مستحيلة مهمة التقريب الحقيقى بين الفئتين اللتين مثل الخلاف بينهما أعمق وأعقد الخلافات ظهرت واستمرت فى تاريخ الإسلام..

بل إن الدكتور أحمد الكاتب هو القائل:

«إن موضوع الإمامة الإلهية لأهل البيت، والعصمة، والنص، وموضوع الإمام الثانى عشر المهدى المنتظر الغائب.. والتى تشكل أساس المذهب الإمامى الإثنى عشرى هى مادة الخلاف الرئيسية مع بقية المسلمين».

فالأمر ليس إذن «مجرد خلاف سياسى تجاوزه الزمن، ولم يبق منه سوى بعض الرواسب والمخلفات البسيطة التى تشكل مادة جدية للخلاف».

* * *

والسؤال هو:

- هل هناك فى مراجع الشيعة الإثنى عشرية - غير الدكتور أحمد الكاتب - من لديه شجاعة المراجعة لهذا الاعتقاد فى ألوهية الإمامة وتأليه الأئمة؟!

أم أن هؤلاء المراجع قد أصبحوا سجناء هذا الموروث القديم الذى بعثه «الغلاة الجدد» فى واقعنا الحديث والمعاصر؟!

إننا فى واقع الأمر، أمام نظرية شيعية، جعلت من ألوهية الإمامة وتأليه الأئمة «كهوزتا» غريبا عن حقيقة الإسلام، كما يعتقده أهل السنة والجماعة وتلك هى «القضية المعضلة» التى يجب أن توضع على مائدة الحوار بين العلماء العقلاء - من الشيعة والسنة - إذا كنا نريد حقا التقريب الحقيقى بين هاتين الفرقتين من فرق المسلمين.

* * *

الموقف الشيعى
من صحابه رسول الله ﷺ

لقد أصاب الدكتور أحمد الكاتب كبد الحقيقة عندما قال:

«إن نشوء نظرية الإمامة الإلهية لأهل البيت، وتحولها إلى عقيدة دينية، أو أصل من أصول الدين، لدى الشيعة الإمامية، أوقعهم فى أزمة تاريخية وعداء نظرى مع الشيخين [أبى بكر وعمر] وانفصال واقعى عن ثقافة أهل البيت وتاريخ الشيعة الأوائل الذين كانوا يكنون حبا واحتراما كبيرين لأبى بكر وعمر.. فنشأة نظرية الإمامة الإلهية، التى تحصر الحق فى الحكم والخلافة فى أهل البيت.. والتى قالت بالنص والتعيين والحصر فى علىٍ وذريته إلى يوم القيامة.. قد انعكس سلبا غى مبدأ الشورى والخلفاء الراشدين الذين اعتبرتهم هذه النظرية غاصبين للخلافة من الإمام علىٍ.. ولقد ظهرت هذه النظرية أول ما ظهرت فى الكوفة أثناء ثورة الإمام زيد بن على [٧٩ - ١٢٢ هـ ٦٩٨ - ٧٤٠م] على هشام ابن عبد الملك [١٠٥ - ١٢٥ هـ ٧٢٤ - ٧٤٣م] فى سنة ١٢٢هـ»

* كذلك أحسن الدكتور أحمد الكاتب عندما قطع بزيف كل الروايات الشيعية التى تحدثت عن إكراه على بن أبى طالب على مبايعة أبى بكر، وعن تهديد عمر ابن الخطاب [٤٠ق هـ٢٣هـ ٥٨٤ - ٦٤٤م] له ولفاطمة إن لم تتم المبايعة.. وعزا اختلاق هذه الروايات إلى حاجة الشيعة لها كى تؤسس لنظريتهم فى الإمامة الإلهية.. وفى ذلك قال:

« لقد كان الإماميون بحاجة ماسة إلى رواية من ذلك القبيل، حتى يبنوا نظريتهم السياسية حول (الإمامة الإلهية لأهل البيت) فبالإضافة إلى النصوص

التى جاءوابها من أجل إثبات النص على الإمام على، والتأويلات التى قاموا بها لبعض الآيات القرآنية، كانوا بحاجة إلى أدلة تاريخية تؤكد نظريتهم».

* وبأمانة الناقد للتاريخ والواعى بحقائق هذا التاريخ، رفض الدكتور أحمد الكاتب هذه الروايات المصنوعة، واللاعقلانية.. وعلل أسباب اختلاقها.. فقال:

«ولكن التاريخ الإسلامى، وتاريخ الإمام على بالخصوص كان يكذب نظريتهم ويهدمها من الأساس، فكيف يصح النص على الإمام بالخلافة ويقوم هو بالتنازل عن «حقه الشرعى» طواعية ويبايع أبا بكر؟!

إذن لابد أن يكون هناك عنف وإرهاب وقمع واستضعاف له - [للإمام على] «يثبت» أنه بايع تحت الضغط - والإكراه وأن بيعة أبى بكر كانت باطلة، وكذلك مبدأ الشورى والاختيار.

ولعل المثير للسخرية أن تتم هذه العملية فى القرن الثالث، والقرن الرابع، بعد غياب أو فقدان أئمة أهل البيت، ووصول النظرية السياسية الإمامية إلى طريق مسدود..»

* * *

إذن فالعداء للصحابة وفى المقدمة منهم الخلفاء الراشدون - وما طفحت به مصادر الشيعة من أحكام غريبة على الصحابة بالكفر والردة والنفاق، إنما كان انعكاسا لنشوء نظرية الإمامة الإلهية، لتبرير رفض الشورى والاختيار، وتثبيت القول بالنص والوصية والتعيين والخروج من مأزق بيعة على لأبى بكر وعمر وعثمان، وموالاته لهم، ونصرته للخلافة فى عهدهم..

فنظرية الإمامة الإلهية - التى طرأت بعد قرنين من تاريخ الإسلام - هى التى استدعت هذا الموقف الغريب والشاذ من الصحابة والخلافة الراشدة «فى

القرن الثالث أو الرابع، بعد غياب أو فقدان أئمة أهل البيت، ووصول النظرية السياسية الإمامية إلى طريق مسدود ».

* لذلك كان طبيعيا أن يقود هذا التحليل العلمى، الذى قدمه الدكتور أحمد الكاتب، لموقف الشيعة من الصحابة.. أن يقوده إلى الحل الذى يخرج الشيعة من هذا النفق المظلم الذى حشروا أنفسهم فيه.

لقد كانت نظرية الإمامة الإلهية هي السبب الذى أفرز الموقف الشنيع من الصحابة.. ولذلك، فإن الخروج من هذا الموقف الشنيع إنما يبدأ بإعادة النظر فى هذه النظرية.. التى هى محور الخلاف وأساس الشقاق والانشقاق.

وفى الإشارة إلى طريق الخروج من هذا النفق المظلم .. يقول الدكتور أحمد الكاتب:

«إن الفهم الصحيح لنظرية الإمامة، وكونها نظرية «سياسية قديمة»، وبائدة، بدل أن تكون «عقيدة دينية» يشكل المقدمة الضرورية أمام التخلى النهائى والحاسم عن تلك الاتهامات الباطلة [للصحابة] ووضعها على قرق التاريخ».

هكذا وضع الدكتور أحمد الكاتب علماء الشيعة وحكماءها أمام الحقيقة، التى يجب أن توضع على مائدة الحوار .. حوار العلماء الحكماء»..

* * *

لقد زوج الإمام على بن أبى طالب ابنته أم كلثوم لعمر بن الخطاب.. وسمى ثلاثة من أبنائه بأسماء أبى بكر وعمر وعثمان.. وكان ركنا ركينا فى خلافة هؤلاء الراشدين الثلاثة.

ولذلك، فإن الانقلاب الشيعى على هؤلاء الخلفا الثلاثة، وعلى جمهور الصحابة، والحكم عليهم بالكفر والردة والنفاق.. ولعنهم والدعاء عليهم فى

الأعياد والمناسبات الشيعية، وعقب الصلوات إنما هو انقلاب على الإمام عليّ وعلى الأئمة من آل بيته.

هذا الانقلاب الذى طفحت مصادر الفكر الشيعى بشناعاته والذى نسبوا فيه إلى جعفر الصادق - كما جاء فى [الأصول من الكافى] للكلينى [٣٢٩ هـ ٩٤١ م] - قوله:

«أن الآية { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ} **[آل عمران : ٩٠] قد نزلت فى أبى بكر وعمر وعثمان .. وكذلك آية** :{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} **[محمد : ٢٥] وأنهم (آمنوا بالنبى فى أول الأمر، وكفروا حين عرضت عليهم ولاية على بن أبى طالب.. وأنهم ارتدوا عن الإيمان فى ترك ولاية عليّ.. »**[١].

*** كما ينسب الكلينى - فى [الروضة من الكافى] - إلى جعفر الصادق - فى تفسير الآية** {رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ} **[فصلت: ٢٩] أنهما أبو بكر وعمر.. »**[٢].

* أما المجلسى - محمد باقر [١٠٣٧ - ١١١٠هـ ١٦٢٨ - ١٦٩٨م] - صاحب [مرآة العقول] - فإنه يقول فى شرحه للكافى:

«إن الجن المذكور فى الآية هو عمر بن الخطاب، سمى بذلك لأنه كان شيطانا إما لأنه كان شرك شيطان لأنه ولد زنى، أو لأنه فى المكر والخديعة كالشيطان»[٣].

*** وينسب الكلينى إلى جعفر الصادق: أن هؤلاء الخلفاء الثلاثة - أبو بكر وعمر وعثمان - [لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب عظيم]**[٤].

١- [الكافى] جـ ١ ص ٤٢٠.
٢- [الروضة من الكافى] جـ ٨ ص ٣٣٤.
٣- [مرآة العقول] جـ ٢٦ ص ٤٨٨.
٤- [الكافى] جـ ١ ص ٣٧٣.

* ويقول المجلسى - فى [العقائد]:

«إن مما عُدّ من ضروريات دين الشيعة الإمامية: البراءة من أبى بكر وعمر وعثمان ومعاوية»[1] كما يصفهم - فى كتابه [حق اليقين] - بأنهم الأصنام الأربعة وأنهم وأتباعهم وأشياعهم شر خلق الله على وجه الأرض واعلم أن إطلاق لفظ الشرك والكفر على من لم يعتقد إمامة أمير المؤمنين والأئمة من ولده يدل على أنهم مخلدون فى النار»[2].

* كما يروى - فى كتابه [بحار الأنوار] - عن مولى لعلى بن الحسين قوله فى أبى بكر وعمر: أنهما كافران كافر من أحبهما.[3].

* كما ذكر المرعشى فى كتابه [إحقاق الحق] - وصف أبى بكر وعمر «بصنمى قريش» وأثبت نص الدعاء عليهما [4].

* ويذكر الشيخ المفيد [٣٣٨ - ٤١٣ هـ ٩٥٠ - ١٠٢٢م] اتفاق الشيعة الإمامية على تكفير الذين قاتلوا عليا.. ويصفهم «بالناكثين والقاسطين والكفار والضلال الملعونين المخلدين فى النار»[5].

* أما شيخ الشيعة نعمة الله الجزائرى [١٠٥٠ - ١١١٢هـ ١٦٤٠ - ١٧٠١م] فإنه يعلن المفارقة في الدين مع جمهور الصحابة وجميع أهل السنة والجماعة .. فيقول:

«إننا لم نجتمع معهم على إله، ولا نبى ولا على إمام، وذلك أنهم يقولون: إن ربهم هو الذى كان محمد نبيه، وخليفته أبو بكر، ونحن لا نقول بهذا الرب،

١- [العقائد] ص ٥٨.

٢- [حق اليقين] ص ٥١٩.

٣- [بحار الأنوار] جـ ٦٩ ص ١٣٧ ، جـ ٢٣ ص ٢٩.

٤- [إحقاق الحق] جـ ١ ص ٩٧.

٥- أوائل المقالات ص ٤٥.

ولا بذلك النبي، بل نقول: إن الرب الذي خليفته أبو بكر ليس ربنا، ولا ذلك النبي نبينا»[1].

* ويروى الكليني هذا الحكم القاطع بكفر كل من عدا الشيعة الإثنى عشرية، عن الإمام الرضا، الذي يقول، كما زعم الكليني:

«إن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم، وأسماء آبائهم، أخذ الله علينا وعليهم الميثاق يردون موردنا ويدخلو مدخلنا ليس على ملة الإسلام غيرنا وغيرهم إلى يوم القيامة»[2].

* وبعبارة شيخ الشيعة ومرجعهم الكبير السيد محمد الشيرازى [١٣٣٨ هـ ـ ١٩٢٠م]:

«فإن من جحد إماما من الأئمة الاثنى عشر - بمن فى ذلك أقسام الشيعة غير الاثنى عشرية - هم كمن قال إن الله ثالث ثلاثة»[3].

* وحتى الإمام أبو القاسم الخوئى [١٣١٧ - ١٤١٢ هـ ١٨٩٩ - ١٩٩٢م] فإنه يقول:

«إنه ثبت بالروايات والأدعية والزيارات جواز لعن المخالفين، ووجوب البراءة منهم، وإكثار السب عليهم، واتهامهم، والوقيعة فيهم - أى غيبتهم - لأنهم من أهل البدع والريب، بل لا شبهة فى كفرهم، لأن إنكار الولاية والأئمة حتى الواحد منهم والاعتقاد بخلافة غيرهم، يوجب الكفر والزندقة، وتدل عليه الأخبار المتواترة الظاهرة فى كفر منكر الولاية»[4].

* * *

١ - [الأنوار النعمانية] جـ ٢ ص ٢٧٩.
٢ - [الكافى] جـ ١ ص ٢٢٣.
٣ - [الفقه] جـ ٤ ص ٢٦٩.
٤ - [مصباح الفقاهة] جـ ٢ ص ١١.

إن هذه الشناعات - التى ملأت المجلدات - والتى غدت شعائر وأدعية وعبادات تعبد بها جمهور الشيعة - هى - فى حقيقتها - انقلاب على خُلق الإمام على بن أبى طالب والأئمة من آل بيته.

ذلك أن الصحابة وإن اختلفوا فى السياسة، فإنهم لم يختلفوا فى الدين.. وحتى عندما بلغ الخلاف السياسى بينهم حد الاقتتال فإن ذلك لم يخرج أيا منهم من إطار الإيمان بثوابت الإسلام - لقد اجتهدوا فى السياسة - أى فى الفروع والفقهيات - فأصاب قوم، كتب لهم أجران وأخطأ آخرون، فكان لهم أجر واحد، هو أجر الاجتهاد.

ولقد كان الإمام على فى مقدمة الذين أعلنوا هذا المنهاج الإسلامى فى النظر إلى فرقاء هذا الاختلاف - الذى اشتهر بالفتنة الكبرى - ففى موقعة «صفين» [٣٧ هـ ٦٥٧م] التى مثلت ذروة الصراع بينه وبين معاوية بن أبى سفيان [٢٠ ق هـ - ٦٠ هـ ٦٠٣ - ٦٨٠م] أعلن الإمام على عن الطبيعة السياسية - وليست الدينية - لهذا الصراع .. فقال - فى مواجهة «الغلو الخوارجى» الذى حكم بالكفر على أطراف هذا الصراع:

«والله لقد التقينا، وربنا واحد، ونبينا واحد، ودعوتنا فى الإسلام واحدة، ولا نستزيدهم فى الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا والأمر واحد، إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان، ونحن منه براء»[1] «إننا والله، ما قاتلنا أهل الشام على ما توهم هؤلاء [الخوارج] - من التكفير والافتراق فى الدين، وما قاتلناهم إلا لنردهم إلى الجماعة، وإنهم لإخواننا فى الدين، قبلتنا واحدة

١- ابن أبي الحديد [شرح نهج البلاغة] جـ ١٧ ص ١٤١ . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩.

ورأينا أننا على الحق دونهم»[1] «لقد أصبحنا نقاتل إخواننا فى الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل، فإذا طمعنا فى خصلة يلم الله بها شعثنا ونتدانى بها إلى البقية فيما بيننا رغبنا فيها، وأمسكنا عما سواها»[2].

وعندما سئل الإمام على عن «آخرة» قتلى الفريقين - فى صفين - قال: «إنى أرجو ألا يقتل أحد نقى قلبه، منا ومنهم، إلا أدخله الله الجنة»[3].

فالاختلاف كله - فى الفتنة الكبرى كلها - اختلاف فى السياسة - التى هى من الفروع والفقهيات - ولم يكن خلافا فى الدين .. أى أنه فى مناطق الاجتهاد فى الفروع.

وإذا كان معيار الخلاف فى أمهات عقائد الدين وأركانه هو «الإيمان» و «الكفر» فإن معيار الاختلاف فى السياسة والفروع هو «الصواب والخطأ» وفرقاء هذا الاختلاف - حتى ولو بلغ حد الاقتتال - لا يخرجهم اختلافهم واقتتالهم من إطار الإيمان بدين الإسلام.

ويشهد على ذلك القرآن الكريم - الذى انطلق منه الإمام علىّ فى تحديد طبيعة هذه الاختلافات - فيقول الله - سبحانه وتعالى - { وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الحجرات: ٩ ، ١٠]

١- الباقلانى [التمهيد فى الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة] ص ٢٣٧ ، ٢٣٨. تحقيق: محمد الخضيري. د. محمد عبد الهادي أبو ريدة. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧.

٢ - الإمام علي [نهج البلاغة] ص ١٤٧ ، ١٤٨ . طبعة دار الشعب . القاهرة.

٣- [التمهيد] للباقلانى - ص ٢٣٧.

هكذا قال الإمام علي منطلقا من القرآن الكريم - في الذين بغوا عليه وقاتلوه .. بينما قالت الشيعة - بلسان الشيخ المفيد وغيره:

«باتفاق الإمامية على تكفير الذين قاتلوا عليا.. ووصفهم بالناكثين والقاسطين والكفار والضلال الملعونين المخلدين في النار»[1].

بل لقد بلغ الغلو بهذا الانقلاب الشيعي على منهاج الإمام علي والأئمة من أهل بيته إلى حد قول المجلسي:

«إعلم أن إطلاق لفظ الشرك والكفر على من لم يعتقد إمامة أمير المؤمنين والأئمة من ولده يدل على أنهم مخلدون في النار»[2].

لقد ألجاهم الخطأ إلى المزيد والعديد من الأخطاء.. ألجاهم الخطأ في تأليه الأئمة، وفي جعل الإمامة عقيدة دينية وركنا من أركان الاعتقاد الديني، إلى تكفير المخالفين وإخراجهم من الدين وإلى الحديث عن المذهب باعتباره دينا مستقلا وموازيا - وهذا أمر بالغ الخطورة - حتى قال نعمة الله الجزائري [١١١٢ هـ ١٧٠١م] عن أهل السنة والجماعة:

«إننا لم نجتمع معهم على إله، ولا نبي ولا على إمام، وذلك أنهم يقولون: إن ربهم هو الذي كان محمد نبيه، وخليفته أبو بكر ونحن لا نقول بهذا الرب ولا بذلك النبي بل نقول: إن الرب الذي خليفته أبو بكر ليس ربنا، ولا ذلك النبي نبينا»[3].

ويقطع الكليني بهذا الافتراق في الدين مع كل من لا يؤمن بنظرية الإمامة الشيعية فينسب إلى الإمام الرضا [١٥٣ - ٢٠٣ هـ ٧٧٠ - ٨١٨م] وهو الثامن في سلسلة أئمة الإثنى عشرية - قوله:

١- الشيخ المفيد [أوائل المقالات] ص ٤٥.

٢- المجلسي [بحار الأنوار] جـ ٢٣ ص ٣٩٠.

٣- نعمة الله الجزائري [الأنوار النعمانية] جـ ٢ ص ٢٧٩. طبعة مؤسسة الأعلى، بيروت

«إن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم أخذ الله علينا وعليهم الميثاق . يردون موردنا ويدخلون مدخلنا، ليس على ملة الإسلام غيرنا وغيرهم إلى يوم القيام..»[1].

بل ويخرجون من الدين - مع أهل السنة والجماعة -حتى الشيعة غير الإثنى عشرية! .. فيقول السيد محمد الشيرازى [١٣٣٨ هـ ١٩٢٠م]:

«إن من جحد إماما من الأئمة الإثنى عشر - بمن فى ذلك سائر أقسام الشيعة غير الإثنى عشرية - هم كمن قال إن الله ثالث ثلاثة»![2]

ويبلغ هذا التكفير والإقصاء من الدين حد العنصرية عند الشيخ المفيد [٤١٣ هـ ١٠٢٢م]، الذى يقول:

«إنه ليس أحد طاهر المولد، وليس أحد على ملة الإسلام إلا الشيعة»![3]

ويظل هذا التراث التكفيرى لكل من عدا الشيعة الإثنى عشرية - والذى بينته المدرسة الأصولية الإجتهادية فى القرن التاسع عشر الميلاد - يظل قائما وسائدا لدى المراجع الكبار فى الفضاء الشيعى المعاصر.. فيقول الإمام أبو القاسم الخوئى [١٣١٧ - ١٤١٢ هـ ١٨٩٩ - ١٩٩٢م]:

«إنه ثبت بالروايات والأدعية والزيارات جواز لعن المخالفين، ووجوب البراءة منهم، وإكثار السب عليهم، واتهامهم، والوقيعة فيهم، لأنهم أهل البدع والريب، بل لاشبهة فى كفرهم، لأن إنكار الولاية والأئمة، حتى الواحد منهم، والإعتقاد بخلافة غيرهم يوجب الكفر والزندقة، وتدل عليه الأخبار المتواترة الظاهرة فى كفر منكر الولاية»![4]

* * *

١- [الكافى] جا ص ٢٢٣.
٢- السيد محمد الشيرازى [الفقه] ج٤ ص ٢٦٩.
٣- الشيخ المفيد [الأمالى] ص ١٦٩.
٤- الخوئى [مصباح الفقاهة] ج٢ ص ١١.

هكذا رأينا منهاج الإمام على فى النظر إلى المخالفين - حتى الذين بغوا عليه وقاتلوه - .. وهو المنهاج الذى انطلق فيه من القرآن الكريم، الذى لم يخرج البغاة من حظيرة الإيمان بالإسلام، وذلك لأن بغيهم وقتالهم إنما كان فى الفروع والسياسات - ولم يكن فى الدين وعقائده وأركانه.

ورأينا كيف رفض الإمام على موقف الخوارج، الذين كفروا المخالفين..

ثم رأينا الانقلاب الشيعى على منهاج الإمام على.. حتى لقد تفوقوا فى هذا «الانقلاب التكفيرى» على الخوارج القدماء!!

وإزاء هذه «الحقيقة المرة» نجد أنفسنا - سنة وشيعة - أمام ضرورة إعادة النظر فى هذا «التراث التكفيرى»، الذى امتلأت وتمتلئ به مصادر الفكر الشيعى.. والذى يصوغ العقائد والعقول والوجدانات عند خريجى الحوزات العلمية - ومنهم المراجع الكبار -وتبعا لهم عامة المقلدين. وهو التراث القائم فى حقل الشيعة والتشيع منذ نشوء نظرية الإمامة الإلهية وتأليه الأئمة وحتى هذه اللحظات..

وإذا لم نمتلك الشجاعة الأدبية والفكرية التى تجعلنا نضع هذه القضية - قضية تكفير الآخر، الذى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله - على مائدة الحوار - حوار العلماء الحكماء العقلاء - فسيظل الحديث عن التقريب بين الشيعة والسنة ضربا من الوهم والزيف والتعمية على حقائق الأمور..

وستظل «ألغام التكفير» هذه جاهزة فى هذا المخزون الفكرى حتى يأتى الأعداء - أعداء الإسلام والمسلمين - يتفجيرها عند اللزوم!

* * *

إن «ألغام التكفير» هذه - تكفير الشيعة للصحابة ولأهل السنة والجماعة - أى لـ ٩٠٪ من الأمة - على مر أجيالها - قد أسسته الشيعة على روايات

تاريخية اخترعت - كما يقول الدكتور أحمد الكاتب - فى القرن الرابع الهجرى.. ذلك القرن الذى كان - بتعبيره - **«قرنا إخبار يا حشويا موبوءا بالخرافات والأساطير والغلو، بسبب انقطاع صلة الشيعة مع أئمة أهل البيت، الذين كانوا فى حياتهم يرشدون حركة التشيع، ولما توفى الإمام الحسن العسكرى سنة ٢٦٠ هـ دون ولد ظاهر يستلم زمام القيادة والتوجيه، وخيم ما يسمى بعصر الحيرة والغيبة، وقع الشيعة وخاصة الإمامية، ضحية الرواة الكذبة الدجالين..»**

وفى إطار ذلك نسجت الأساطير والروايات والأكاذيب عن اضطهاد الصحابة لآل البيت، نظرية الإمامة الإلهية.. وظلت هذه الروايات والأكاذيب سائدة ورائجة كمصادر للتربية والتكوين النفسى عند مراجع الشيعة وجماهيرهم.

* فضريح كمشاعر إيرانى اسمه أبو لؤلؤة تحول إلى مزار مقدس - بحسبانه هو قاتل عمر بن الخطاب!

* وعيد الزهراء يصنع فيه جمهور الشيعة وعامتهم دمية لعمر بن الخطاب.. ويرجمونها بالأحجار!

* وحتى هذه اللحظات يصر العلماء والفقهاء والمراجع الكبار على تأسيس المذهب على هذه الأساطير.

فيصرح مدير مركز الأبحاث العقائدية فى مكتب السيد على السيستانى - وهو أكبر مراجع شيعة العصر - يصرح الشيخ فارس الحسون - كما يورد الدكتور أحمد الكاتب - فيقول:

«.. والحقيقة أن قضية الزهراء سلام الله عليها - [أى ضرب عمر بن الخطاب لها، وإسقاطه جنينها] - أساس مذهبنا، وجميع القضايا التى لحقت تلك القضية وتأخرت عنها كلها مترتبة على تلك القضية، ومذهب الطائفة

الإمامية الإثنى عشرية بلا قضية الزهراء - سلام الله عليها - وبلا تلك الآثار المترتبة على تلك القضية - هذا المذهب - يذهب ولا يبقى، ولا يكون فرق بينه وبين المذهب المقابل»!!

على مثل هذه الأكاذيب التى نسبت زورا وبهتانا إلى الصحابة - رضوان الله عليهم - تأسس المذهب.. وفى القلب منه عقيدة الإمامة الإلهية.. ثم تحولت هذه الأكاذيب إلى مناهج فى التربية والتكوين الثقافى والشحن الوجدانى والتعبئة النفسية.. فغدونا أمام «مهمة صعبة».. ندعو الله، سبحانه وتعالى، أن لا تدخل فى عداء المستحيلات!

* * *

ملاحظات

بقيت لنا ملاحظات على ما أورده الدكتور أحمد الكاتب في حديثه عن الموقف الشيعي -وكذلك الموقف السني - من صحابة رسول الله - ﷺ..

- ١ -

لقد قال:

«إن النقد والسب واللعن والتكفير والاتهام بالردة والنفاق - [للصحابة - من قبل الشيعة] - كان إفرازا من إفرازات الفتنة الكبرى التي عصفت بالمسلمين».

ونحن نختلف مع الدكتور أحمد في التعليل.. فلقد سبق وأوردنا نصوصه هو التي تؤكد على أن الموقف الشيعي من الصحابة إنما جاء إفرازا لتبلور نظرية الإمامة الإلهية وتأليه الأئمة. وليس بسبب أحداث الفتنة الكبرى.

ويشهد على ذلك الموقف الشيعي من الشيخين - أبي بكر وعمر - والذي اختصّهما بأفحش الاتهامات وأقذع الأوصاف.. وهما قد عاشا وماتا قبل نشوب أحداث الفتنة بين الصحابة - عليهم جميعا رضوان الله..

- ٢ -

والملاحظة الثانية، حول قول الدكتور أحمد الكاتب أن علماء أهل السنة والجماعة قد أضفوا القداسة والعصمة على عموم الصحابة - فغلوا في هذا الموقف - في مقابل الغلو الشيعي المضاد..

وفي هذا المقام، قال الدكتور أحمد الكاتب:

«إن النظرية السنية حول الصحابة، جعلت منهم مادة دينية رغم أنهم بشر،

فى حين أنهم لم يكونوا يشكلون جزءا من العقيدة الإسلامية.. لقد رفعتهم - [النظرية السنية] - إلى درجة (العصمة) وحتمية غفران الله لذنوبهم».

* ونحن نقول - فى حوارنا العلمى مع العالم الفاضل الدكتور أحمد الكاتب:

إن أهل السنة والجماعة لم يجعلوا الصحابة جزءا من العقيدة الإسلامية.. ولم يرفعوهم إلى درجة العصمة.. لأن العصمة - فى الفكر السنى - هى فقط لرسول الله ﷺ فيما يبلغ عن الله - سبحانه وتعالى -..

ولم يقل أهل السنة «بحتمية» غفران الله لذنوب الصحابة.. فأهل السنة والجماعة لا يقولون بأية حتمية على الذات الإلهية، صاحبة الطلاقة والقدرة والمشيئة، التى لا تعرف الحدود..

وما قاله أهل السنة والجماعة عن الصحابة: **أنهم بشر مجتهدون، منهم المصيب، ومنهم المخطىء.. ومنهم البغاة، الذين بغوا على الخليفة الشرعى - عثمان.. وعلى - فى أحداث الفتنة الكبرى - لكن حتى هؤلاء البغاة مؤمنون - كما أخبر بذلك القرآن الكريم - لأن خلافهم وقتالهم وبغيهم إنما حدث فى الفروع والسياسات - وليس فى عقائد الدين وأركانه - ومن ثم فإن هذا الأختلاف والبغى والأقتتال لا يخرج أيا من فرقائه حظيرة الإيمان بالإسلام..**

أما الذين صحبوا رسول الله ﷺ من المنافقين فإن صحبتهم هذه هى صحبة بالمعنى اللغوى.. وليست بالمعنى الاصطلاحى.. لقد «صحبوا» الرسول، لكنهم لم يكونوا «معه»، أي لم يكونوا من الذين تحدث عنهم القرآن فقال: {مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ} [الفتح: ٢٩].. أى لا يستوى أهل الصحبة المادية، الذين كانوا «على الرسول»، بأهل الصحبة الشاملة، الذين كانوا «معه» ﷺ.

* وعندما ألف علماء أهل السنة والجماعة فى تراجم الصحابة، لم يوردوا أسماء المنافقين الذين صحبوا الرسول - بالمعنى اللغوى للصحبة..

لقد انطلق أهل السنة والجماعة - فى الموقف من الصحابة - ومن غفران الله لذنوبهم - من القرآن الكريم.. الذى قال:

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ٢٩]..

{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ١٨].

{أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: ٢٢].

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} [البينة: ٧ - ٨].

{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا} [المائدة: ٣]

{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً} [الأحزاب: ٢٢ - ٢٣].

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ

الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ} [الأنفال: ٧٤ - ٧٥].

{وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١٠٠].

من هذه الآيات القرآنية المحكمة - وعشرات مثلها - انطلق علماء السنة والجماعة فى موقفهم من صحابة رسول الله ﷺ.

فحكموا بما حكم به القرآن - لهؤلاء الصحابة - من الرضى والرضوان والتبشير بالجنة والنعيم المؤبد فيها.. والفوز العظيم فى الدنيا والآخرة.

وقالوا - [علماء أهل السنة والجماعة] - مع ذلك - بأن الصحابة: بشر.. مجتهدون.. يصيبون ويخطئون.. وزن عدالتهم فيما بلّغوا عن رسول الله هى عدالة المجتهد.. وليست عدالة المعصوم.. وإن كانوا فى مجموعهم - كأمة - لا يجتمعون على ضلالة - كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ «لا تجتمع أمتى على ضلالة» ومن معانى الأمة «الجيل.. والقرن» من الناس.

وقال علماء أهل السنة والجماعة - كذلك -: إن اختلافات الصحابة السياسية هى اختلافات المجتهدين فى الفروع والفقهيات، التى لا تخرج فرقاءها من إطار الإيمان بدين الإسلام..

وما ينفيه أهل السنة والجماعة عن الصحابة - ليس الخطأ فى الاجتهاد - وإنما الحكم الشيعى على جمهورهم بالكفر والردة والضلال والنفاق والمروق من دين الإسلام.. وهو الذى ذكره الدكتور أحمد الكاتب - عرضا - عندما قال:

«باحتمال افتقاد بعض الصحابة لدرجة الإيمان العليا، والاتصاف بالنفاق والكفر»!

ذلك أن علماء أهل السنة والجماعة عندما يرفضون مثل هذه الأحكام والأقوال فى حق الصحابة، إنما ينطلقون من الصورة القرآنية - التى أشرنا إلى بعض معالمها - لهؤلاء الصحابة.. ومن منهاج الإمام على بن أبى طالب نفسه فى تقويم خصومه فى الصراع السياسى على الخلافة.. وهو المنهاج الذى سبقت إشارتنا إلى عباراته النفسية والحكيمة والدقيقة المعبرة عنه.. والتى نضيف إليها ما ذكره الدكتور أحمد الكاتب من قول الإمام على فى أهل وقعة «الجمل»، الذين وقعت الحرب بينه وبينهم، عندما سئل عنهم:

- أمشركون هم؟

- فقال: من الشرك فروا.

- فسئل: أمنافقون هم؟

- فقال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا.

- فسئل: فما هم؟

- فقال: إخواننا بغوا علينا».

وعندما سمع - كرم الله وجهه - بعض أصحابه - فى «صفين» - يسب أهل الشام - معاوية وصحبه - قال:

- «إنى أكره أن تكونوا سبابين».

هذا هو الموقف الذى انطلق منه علماء أهل السنة والجماعة، والتزموا به فى حديثهم عن صحابة رسول الله ﷺ ورضى عنهم أجمعين..

فأهل السنة لم يجعلوا الموقف من الصحابة عقيدة دينية.. ولذلك لم يحكموا بالكفر على الخائضين فى أحوالهم.. وإنما قالوا - بلسان حجة الإسلام أبى حامد الغزالى:

«إن الخطأ المتعلق بأحوال الصحابة بدعة»[1].. وليس كفرا.

١- [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] ص ١٥.

- ٣ -

وأهل السنة والجماعة لم يسووا بين كل الذين رأوا رسول الله ﷺ وصحبوه - بالمعنى اللغوى للصحبة - وإنما اشترطوا للصحبة - بالمعنى الاصطلاحى - شروطا لخصها الواقدى [١٣٠ - ٢٠٧ هـ ٧٤٧ - ٨٢٣م] - فى النص الذى أورده الدكتور أحمد الكاتب - عندما قال:

«رأيت أهل العلم يقولون: كل من رأى رسول الله ﷺ وقد أدرك الحلم، وأسلم، وعقل أمر الدين، ورضيه، فهو عندنا ممن صحب النبى ولو ساعة من نهار، ولكن أصحابه على طبقاتهم وتقدمهم فى الإسلام».

ففى هذا النص - المعبر عن رأى أهل العلم من علماء أهل السنة والجماعة - شروط خمسة لمن يطلق عليه مصطلح «الصحابى»:

١ - رؤية الرسول ﷺ أى الصحبة بالمعنى اللغوى.

٢ - وإدراك الحُلم، أى البلوغ والتكليف.

٣ - والإسلام.

٤ - وعقل الدين، أى الإيمان بالإسلام عن قناعة وتعقل.

٥ - والرضى بهذا الدين.. أى الاطمئنان والانتماء والولاء لهذا الدين.

ثم هم - بعد هذه الشروط الخمسة - لا يسوون بين الذين توفرت فيهم جميع هذه الشروط، وإنما ينبهون - وينصون - على أن الصحابة - الذين اجتمعت فيهم كل هذه الشروط - ليسوا سواء، وإنما هم **«على طبقاتهم وتقدمهم فى الإسلام»..**

* ويشهد لذلك أيضا ما نقله الدكتور أحمد الكاتب عن حجة الإسلام أبى حامد الغزالى [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١م] من:

«أنه لا يكفى للاسم - [الصحابى] - من حيث الوضع - الصحبة ولو ساعة: ولكن العرف يخصص الاسم بمن كثرت صحبته».

- ٤ -

ولم يحدث أن علماء أهل السنة والجماعة ساووا بين فرقاء الصراع فى الفتنة الكبرى.. ومن الشواهد على ذلك ما نقله الدكتور أحمد الكاتب عن الإمام النووى [٦٣١ - ٦٧٦ هـ ١٢٣٣ - ١٢٧٧م] - فى شرحه لصحيح مسلم - جـ٧ ص ١٦٨ - عندما قال:

«إن عليا رضى الله عنه كان هو المصيب المحق، والطائفة الأخرى - أصحاب معاوية رضى الله عنهم - كانوا بغاة متأولين.. والجميع مؤمنون، لا يخرجون بالقتال عن الإيمان ولا يفسقون، وهذا مذهبنا..».

* وكذلك ما نقله الدكتور أحمد الكاتب عن شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م] - فى الفتاوى جـ٤ ص ٤٦٧ - من قوله:

«إن كلا الطائفتين المقتتلتين - على وأصحابه ومعاوية وأصحابه - على حق، وإن عليا وأصحابه كانوا أقرب إلى الحق من معاوية وأصحابه»

* وكذلك ما نقله الدكتور أحمد الكاتب عن الرمام ابن كثير [٧٠٠ - ٧٧٤هـ ١٣٠١ - ١٣٧٣م] - فى [البداية والنهاية] جـ١٠ ص ٥٦٣ - من:

«إسلام الطائفتين: أهل الشام وأهل العراق - لا كما تزعمه فرقة الرافضة أهل الجهل والجور من تكفيرهم أهل الشام - ولقد كان أصحاب على أدنى الطائفتين إلى الحق، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة: أن عليا هو المصيب، وإن كان معاوية مجتهدا فى قتاله له، وقد أخطأ، وهو مأجور إن شاء الله، ولكن عليا هو الإمام المصيب إن شاء الله تعالى، فله أجران..».

* وكذلك ما أورده الدكتور أحمد الكاتب عن إمام الأشعرية أبى الحسن

الأشعرى [٢٦٠ - ٣٢٤ هـ ٨٧٤ - ٩٣٦م] - فى كتابه [الإبانة] - من قوله:

«.. فأما ما جرى بين على والزبير وعائشة، رضى الله عنهم، فإنما كان على تأويل واجتهاد، وعلى الإمام، وكلهم من أهل الاجتهاد، وقد شهد لهم النبى بالجنة والشهادة، فدل على أنهم كلهم كانوا على حق فى اجتهاده. وكذلك ما جرى بين على ومعاوية، رضى الله عنهم، كان على تأويل واجتهاد».

* وكذلك ما نقله الدكتور أحمد الكاتب عن الإمام ابن حزم الأندلسى [٣٨٤ - ٤٥٦ هـ ٩٩٤ - ١٠٦٤م] - فى [الفصل] جـ٤ ص ١٥٨ - من قوله فى أهل «الجمل»:

«.. فقد صح صحة ضرورية لا إشكال فيها أنهم لم يمضوا إلى البصرة لحرب على، ولا خلافا عليه، ولانقضا لبيعته، ولو أرادوا ذلك لأحدثوا بيعة غير بيعته. هذا ما لا يشك فيه أحد ولا ينكره أحد، فصح أنهم إنما نهضوا إلى البصرة لسد الفتق الحادث فى الإسلام من قتل أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ظلما. وبرهان ذلك أنهم اجتمعوا ولم يقتتلوا ولا تحاربوا، فلما كان الليل عرف قتلة عثمان أن الإراغة والتدبير عليهم، فبيتوا عسكر طلحة والزبير وبذلوا السيف فيهم، فدافع القوم عن أنفسهم فى دعوى حتى خالطوا عسكر على، فدفع أهله عن أنفسهم، وكل طائفة تظن ولاشك أن الأخرى بدىء بها بالقتال. واختلط الأمر اختلاطا لم يقدر أحد على أكثر من الدفاع عن نفسه، والفسقة من قتلة عثمان لا يفترون من شن الحرب وإضرامه.

فكلتا الطائفتين مصيبة فى غرضها ومقصدها، مدافعة عن نفسها.

ورجع الزبير، وترك الحرب بحالها، وأتى طلحة سهم غاير وهو قائم لا يدرى حقيقة ذلك الاختلاط.. فانصرف ومات من وقته، رضى الله عنهم.. فهكذا كان الأمر..».

هذا هو موقف أهل السنة والجماعة من صحابة رسول الله ﷺ:

* لا يجعلونهم «عقيدة دينية» ومن ثم لا يكفرون الخائضين فيهم.. اللهم إلا إذا كان تكفير جمهور الصحابة يلقى بظلاله على الثقة فى نقل الدين - وحيا وسنة وشريعة - .. لأن ذلك يعنى مناقضة القرآن، الذى قطع بالحفظ الإلهى لهذا الذكر الحكيم، ومن ثم تهيئة الله - سبحانه وتعالى - لهذا الجيل - الذى صنعه الرسول على عينه - كى يحمل هذا الدين إلى التابعين.. كما أن فى التكفير لمن شهد لهم القرآن بالجنة والفوز والرضوان فيه تكذيب لله ورسوله، يفضى إلى الكفر المحقق والعياذ بالله.

* ولا يقول أهل السنة والجماعة بعصمة الصحابة.. وإنما يقولون باجتهادهم.. هذا الاجتهاد الذى للمخطىء فيه أجر، وللمصيب فيه أجران..

* وهم لم يسووا بين فرقاء الصراع فى الفتنة الكبرى، وإنما حكموا لعلى بن أبى طالب بأنه كان الإمام الحق، والخليفة الشرعى، والأقرب إلى الحق فى الاجتهاد بموضوع الاختلاف.. فهو صاحب الشرعية.. وله أجران على اجتهاده، بينما كان خصومه متأولين مخطئين فى الاجتهاد..

* * *

ونحن لو قارنا بين موقف أهل السنة والجماعة - هذا - من صحابة رسول الله ﷺ:

توقيرهم.. والثناء عليهم.. والقول بعدالتهم فيما بلغوا عن رسول الله.. مع نفى العصمة عنهم.. والحكم بخطأ - بل وبغى - من أخطأ وبغى منهم، كثمرة للخطأ فى الاجتهاد والتأويل -

لو قارنا هذا الموقف السنى بموقف الشيعة الإمامية من أئمتهم.. وكيف بلغ الغلو فيهم حد التأليه أحيانا.. والتفضيل على الأنبياء والمرسلين أحيانا

أخرى.. والقول بعصمتهم فى كل الأحايين.. والادعاء بأن لهم ولاية تكوينية على كل ذرات هذا الكون.. وبأن الله قد فوض إليهم أمور الخلق والرزق فى هذا العالم.. وبأن إمام الزمان هو رب الزمان.. وبأن حساب الناس عليهم وإيابهم إليهم.. وأنه لولاهم لساخت الأرض بما ومن عليها.. إلخ.. إلخ..

لو قارنا هذين الموقفين - موقف أهل السنة والجماعة من الصحابة.. وموقف الشيعة الإمامية من أئمتهم - لعلمنا أين الغلو؟.. وأين الاعتدال؟ وأين هى الخرافة؟ وأين هى النظرة العلمية العقلانية لهذا الجيل الفريد، الذى أقام الدين.. وأسس الدولة.. وأزال قوى الهيمنة والاستعمار والقهر والاستغلال.. وحرر الأرض والضمائر.. وغير وجه الدنيا واتجاه التاريخ.. وحمل إلى أقطار الأرض أعظم نعم الله علينا: نعمة الإسلام..

فلولا هؤلاء الصحابة الكرام لكان جمهور الشيعة مجوسا يعبدون النار حتى الآن.. ولكان جمهور أهل السنة يعبدون الصليب - وربما العجل أبيس - حتى هذه اللحظات!

* * *

تلك صفحات كان الفضل فى تحريرها لمطالعة كتاب العالم الفاضل الدكتور أحمد الكاتب:

[السنة والشيعة: وحدة الدين - خلاف السياسة والتاريخ]

والذى نسعد دائما وأبدا عندما نقدمه إلى الباحثين والقراء.. سائلين المولى - سبحانه وتعالى - أن يحقق مقاصدنا من وراء هذه الجهود الفكرية والعلمية، التى نبتغى بها رأب الصدع القائم فى صفوف الأمة الإسلامية - بين الشيعة والسنة..

إنه - سبحانه - أفضل مسئول وأكرم مجيب،

١٨ جماد الأول سنة ١٤٢٨ هـ.

٤ يونية سنة ٢٠٠٧م.

دكتور

محمد عمارة

المصادر والمراجع

ابن أبي الحد: [شرح نهج البلاغة] تحقيق: محمد أبو الفضل
إبراهيم. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م.

ابن تيمية: [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول]
طبعة

ابن حزم: القاهرة سنة ١٣٢١ هـ.

ابن خلدون: [الفصل في الملل والأهواء والنحل].

ابن كثير: [المقدمة] طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢هـ.

أبو حنيفة المغربي - [البداية والنهاية].

النعمان بن محمد: [دعائم الإسلام] تحقيق: آصف بن علي أصغر

د. أحمد الكاتب: فيضي. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.

[السنة والشيعة:وحدة الدين. خلاف السياسة

الأفغاني - جمال الدين: والتاريخ].

[الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د.محمد

الزيجي -والجرجاني: عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.

[شرح المواقف] طبعة القاهرة سنة ١٣١١ هـ.

الباقلاني: [التمهيد] تحقيق:محمد الخضيري، د. محمد عبد
الهادي أبو ريدة. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧م.

بريمر - بول: [مذكرات بريمر] - «عام قضيته في العراق» - ترجمة: عمر الأيوبي - طبعة دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٦م.

الجبرتي: [عجائب الآثار في التراجم والأخبار] تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقي، سيد إبراهيم سالم. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

الجويني: [الإرشاد] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠م.

الخراساني - محمد الوحيد: [مقتطفات ولائية] - محاضرة بقم - في ١٣ شعبان سنة ١٣١١ هـ.

الخميني - آية الله: [الحكومة الإسلامية].

: [مصباح الهداية إلى الولاية والخلافة].

: [الأربعون حديثا] - تعريب: محمد الغروي. طبعة مؤسسة الكتاب الإسلامي.

الخوئي - أبوالقاسم - آية الله: [مصباح الفقاهة].

رسول جعفريان: [أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة] تقديم: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

الشهرستاني: [نهاية الإقدام في علم الكلام] تحقيق: ألفريد جيوم. طبعة مصورة بدون تاريخ الطبع ومكانه.

الطوسي (أبو جعفر): [تلخيص الشافي] تحقيق: السيد حسين بحر

العلوم. طبعة النجف سنة ١٣٨٣ هـ سنة ١٣٨٤هـ.

عبد الحسين أحمد الأميني: [الغدير فى الكتاب والسنة والأدب] طبعة بيروت - الثالثة -

على بن أبى طالب - الإمام: [نهج البلاغة] طبعة دار الشعب - القاهرة.

الغزالى - أبو حامد: [الاقتصاد فى الاعتقاد] طبعة القاهرة - مكتبة صبيح - بدون تاريخ.

: [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧م.

الفيض الكاشانى: [تفسير الصافى] طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م.

الكرمانى - أحمد حميد الدين: [راحة العقل] تحقيق: د. محمد كامل حسين، د. محمد مصطفى حلمى. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢م.

الكلينى: [الأصول من الكافى] تحقيق: على أكبر العفارى. طبعة طهران سنة ١٣٨٨ هـ.

: [الروضة من الكافى].

المجلسى: [مرآة العقول] طبعة دار الكتب الإسلامية - طهران.

: [العقائد]

: [حق اليقين]

: [بحار الأنوار]

المرتض - السيد على بن الحسين: [مجموع من كلام السيد المرتضى] - مخطوط بالمكتبة التيمورية - دار الكتب المصرية.

المرعشى: [إحقاق الحق].

محمد تقى المدرسى: [الإمام المهدى قدوة الصديقين].

محمد السماك: [الأقليات بين العروبة والإسلام] طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م.

محمد الشيرازى - السيد: [من فقه الزهراء].

: [الفقه]

د.محمد عمارة: [الإسلام وفلسفة الحكم] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٦م.

[الإسلام والتعددية] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م.

[الإمامة]

المطهرى - الشيخ مرتضى: [عقائد الإمامية] - طبعة دار النعمان - النجف.

المظفر - محمد رضا: [أوائل المقالات] طبعة تبريز - إيران.

المفيد - الشيخ: [المسائل السرورية].

نعمة الله الجزائرى: [الأنوار النعمانية] طبعة تبريز - إيران.

يوسف البحرانى: [الدار النجفية] طبعة مؤسسة آل البيت.

المقدمة

من هم الشيعة؟ ومن هم السنة؟

قد يحلو للبعض تصوير الخلاف الشيعي السني وكأنه خلاف عقدي جذري وخالد لا يمكن معالجته إلى يوم القيامة، ولكني أعتقد أنه بالدرجة الأولى خلاف سياسي تجاوزه الزمن، وهو إن كان يتضمن معنى من معاني الخلاف السياسي في التاريخ السحيق، فإنه قد فقد مبرر وجوده اليوم بعد حدوث تطورات هائلة في حياة المسلمين. ولم تبق منه سوى بعض الرواسب والمخلفات البسيطة التي لا تشكل مادة جدية للخلاف فضلا عن التناحر بين المسلمين. وإذا كان ينبغي التخلص من تلك الرواسب التاريخية فإنه يجدر أيضا مقارنة تلك الخلافات بعوامل الاختلاف العديدة الأخرى التي تحفل بها حياتنا اليومية، والتي يجب أن نعمل سوية من أجل التخلص منها أيضا، من أجل بناء وحدة اسلامية متينة.

لم يكن الخلاف الطائفي الشيعي - السني ، هو الخلاف الوحيد في تاريخنا الإسلامي وواقعنا المعاصر، فقد كانت ولا تزال هنالك خلافات مريرة داخل كل طائفة، داخل الشيعة والسنة، إضافة إلى الخلافات القومية والقبلية والطبقية والحزبية التي تفجرت عبر التاريخ وتتفجر هنا وهناك باستمرار. بحيث نستطيع القول إن الخلاف الشيعي - السني يتراجع إلى درجة كبيرة أمام تلك الخلافات، وإنه لا يوجد في الحقيقة خلاف جدي بين الطائفتين في الخارج، ما عدا بعض الحواجز النفسية والمسائل البسيطة. وما عدا بعض التوتر الطائفي الذي يعشش في صدور المتطرفين والغلاة من الفريقين، وهم



السنة والشيعة

وحدة الدين
خلاف السياسة والتاريخ

إصدارات مكتبة النافذة فى الفرق والمذاهب

- الشيعة (النشأة السياسية والعقيدة الدينية)
- زواج المتعة بين الإباحة والتحريم عند الشيعة وأهل السنة
- المرجع الكامل فى الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية
- الفرق الدينية اليهودية فى الموسوعة العبرية
- المعتزلة (نشأتهم . فرقهم . آراؤهم الفكرية)
- أكذوبة تحريف القرآن بين السنة والشيعة
- عفواً سيدنا عثمان


9 789776 189317

مكتبة النافذة